الأخلاق في الإسلام

(النظرية والتطبيق)

تأليف

د. إيمان عبد المؤمن سعد الدين

أستاذ العقيدة المساعد بجامعة الأزهر

ⓒ مكتبة الرشد ، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سعد الدين، إيمان عبدالمؤمن

الاخلاق في الإسلام (النظرية والتطبيق). / إيمان عبدالمؤمن سعد الدين.-
الرياض، ١٤٢٤هـ

٢٦٤ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٨ - ١٨٢ - ٠١ - ٩٩٦٠

١- الاخلاق الإسلامية ٢- التربية الإسلامية أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٤/٢٥

رقم الإيداع : ١٤٢٤/٢٥
ردمك : ٨ - ١٨٢ - ٠١ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م

التوزيع في جميع أنحاء المملكة
مكتبة الرشد للنشر والتوزيع

• المملكة العربية السعودية - الرياض - طريق الحجاز

ص.ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ - هاتف، ٤٥٩٣٤٥١ - فاكس، ٤٥٧٣٣٨١
E-mail: alrushd@alrushdryh.co
www.al-rushd.com

★ فرع مكة المكرمة، هاتف، ٥٥٨٥٤٠١ - ٥٥٨٣٥٠٦
★ فرع المدينة المنورة، شارع أبي ذر الغفاري - هاتف، ٨٣٤٠٦٠٠
★ فرع القصيم، بريدة - طريق المدينة - هاتف، ٣٢٤٢٣١٤
★ فرع أبها، شارع الملك فيصل هاتف، ٢٣١٧٣٠٧
★ فرع الدمام، شارع ابن خلدون، هاتف، ٨٣٨٢١٧٥

وكلاؤنا في الخارج

★ الكويت، مكتبة الرشد - حولي - هاتف، ٢٦١٢٣٤٧
★ القاهرة، مكتبة الرشد - مدينة نصر - هاتف، ٢٧٤٤٦٠٥
★ بيروت، الدار اللبنانية - شارع الجاموس - هاتف، ٠٠٩٦١١٨٤٢٤٥٧
★ الأردن، عمان - دار النبلاء - هاتف، ٥٣٣٢٦٥٨

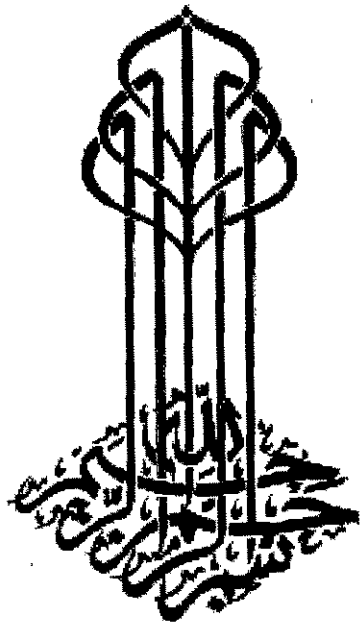

قال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خُلق عظيم ﴾ (القلم: آية ٤)

مقدمـــة

بسم الله عليه توكلت وبه أستعين فهو نعم المولى ونعم النصير وأصلي وأسلم على النبي المصطفى والرسول المجتبي وعلى آله وصحابته أجمعين... وبعد..

فإن هذا الكتاب يتناول التعريف بعلم الأخلاق باعتباره يمثل دعامة كبرى في تكوين الشخصية السوية ويستقى معالمه من المصادر الإسلامية الأصيلة (الكتاب والسنة)، وقد عنيت بالدرجة الأولى ببيان ثراء الفكر الإسلامي في جانب الأخلاق كما هو ثري في جميع جوانب الفكر والتشريع. مما يكون فيه رداً كافياً على الذين ينكرون أو يتقصون من عناية الفكر الإسلامي بمسألة الأخلاق، ويزعمون أن دراسة الأخلاق من معطيات الحضارة الغربية، وأن نصيب الفكر الإسلامي منها ضئيل، ولم يعرف العناية بهذا المجال إلا مع مشارف القرن الخامس الهجري.

لذا استعرضت في هذا الكتاب بعض القيم والمثل الأخلاقية في الإسلام وقمت ببيان وتحليل أهم الخصائص والمميزات الأخلاقية في الفكر الإسلامي الذي مصدره الكتاب والسنة كما أشرت إلى حاجة غير المسلمين إلى أخلاق الإسلام ترغيبا لهم وتعريفاً بسماحة هذا الدين الخاتم وإنقاذاً لهم من براثن الجهل والعمى إلى نور الله الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.

ولما كان الضد يظهر حسنه الضدُّ فقد عرضت للأخلاق في بعض المذاهب والديانات المختلفة ليتجلى لنا بوضوح عناية الإسلام بالأخلاق في جوانبها المختلفة.

كما عني الكتاب بلفت نظر القارئ إلى ثمار القيم الأخلاقية وانعكاساتها على واقع المجتمع المسلم وأثرها في ميدان التطبيق على غير المسلمين (حين التزمها المسلمون نظرية وتطبيقاً قولا وممارسة) فأتت أكلها طيبة بإذن الله تعالى فكانت

الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام في ربوع المعمورة. كذلك عني الكتاب بتقديم صورة وافية عن خصائص الأخلاق الإسلامية، وكذا الأساليب التي تساعد في التربية على الأخلاق الفاضلة ثم عَرَضَ لارتباط الأخلاق بالعقيدة والعبادات وبعد ذلك تناول الكتاب عرض الأخلاق الإسلامية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

واختتم الكتاب فصوله بعرض للأخلاق في فكر بعض العلماء والمربين أمثال: الغزالي، ومسكويه.

والله الهادي إلى سواء السبيل...

المؤلفـــة

الموضـــوع	الصفحة
- المقدمة	٥
• الفصل الأول : (مدخل لعلم الأخلاق)	
- تمهيد	١٣
- تعريف الأخلاق	٢٣
- موضوع علم الأخلاق	٢٧
- ثمرات علم الأخلاق على الفرد والمجتمع	٣٥
- تقسيم علم الأخلاق	٣٨
- علاقة الخلق بالسلوك	٣٩
• الفصل الثاني : (الأخلاق عند غير المسلمين)	
- تمهيد	٥٣
- الأخلاق في العصر اليوناني	٥٥
- الأخلاق عند العرب في العصر الجاهلي	٥٨
- الأخلاق في العصور الوسطى	٥٩
- الأخلاق في العصر الحديث	٥٩
- الأخلاق في الإسلام	٦٣
• الفصل الثالث : (أساليب التربية الخلقية)	
- الأسلوب الأول : الوعظ والنصيحة	٦٩
- الأسلوب الثاني : تعود الخلق الفاضل	٧٧
- الأسلوب الثالث : صداقة الأخيار	٨١

- الأسلوب الرابع : الثواب والعقاب ——— ٨٩
- الأسلوب الخامس : الأسوة الحسنة ——— ٩٤

• **الفصل الرابع : (خصائص الأخلاق الإسلامية)**

أولاً : الخصائص : ——— ١٠٥
- الخاصية الأول : شمول الأخلاق ——— ١٠٧
- الخاصية الثانية : الصلاحية العامة لكل زمان ومكان ——— ١١٣
- الخاصية الثالثة : إقناع العقل والعاطفة ——— ١١٧
- الخاصية الرابعة : المسؤولية الأخلاقية والجماعية وتشمل : ——— ١٢٢
١ - الضمير الخلقي ——— ١٢٢
٢ - الإلزام الخلقي ——— ١٢٤
٣ - الحكم الخلقي ——— ١٢٨
٤ - المسؤولية ——— ١٣٠
- الخاصية الخامسة : الجزاء على الخير والشر ——— ١٣٩
ثانياً : ارتباط الأخلاق بالعقيدة والعبادات ١٤١

• **الفصل الخامس : (الأخلاق الإسلامية في ضوء القرآن والسنة)**

١ - خلق العدل ——— ١٥٦
٢ - خلق الإحسان ——— ١٦٢
٣ - خلق الرحمة ——— ١٦٤
٤ - خلق الحياء ——— ١٧٠
٥ - خلق العفة ——— ١٧٥

٦ – خلق الصدق ——— ١٨٠
٧ – خلق الأمانة ——— ١٨٧
٨ – خلق الحلم ——— ١٩٢
٩ – خلق الصبر ——— ١٩٧
١٠ – خلق التواضع ——— ٢٠٤
١١ – خلق كظم الغيظ ——— ٢١٠
١٢ – العفو عن المسيء ——— ٢١٤
١٣ – الوفاء بالوعد ——— ٢١٨

• **الفصل السادس : (الأخلاق في فكر بعض العلماء والمربين)**

– الأخلاق عند الغزالي ——— ٢٣٤
– الأخلاق عند ابن مسكويه ——— ٢٤٠

• **خاتمـــة الكتـــاب** ——— ٢٥١
• **مراجـــع الكتـــاب** ——— ٢٥٩

الفصل الأول

مدخل لعلم الأخلاق

الفصل الأول
مدخل لعلم الأخلاق

لقد شاء الله تعالى للإسلام أن يكون الرسالة الخاتمة الخالدة لكل الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأزمانهم وجعل فيه تلك الخصائص الفريدة المدهشة كالشمولية، والوسطية، والواقعية، . . فكان - بفضل حفظ الله له - هاديا للناس، ومرشداً لهم، ودالاً على طريق السعادة والشقاء والخير والشر والهناء والعناء في الدار الدنيا قبل الدار الآخرة، ومعلوم أن الإسلام قد شمل بتعاليمه جميع جوانب الحياة، فنظم علاقة الفرد بربه، وعلاقته مع الآخرين، ولم يترك فضيلة من الفضائل إلا ودعا إليها، وحث على التمسك بها، ولم يَدَعْ رذيلة من الرذائل إلا ونبه على أخطارها وضرورة الابتعاد عنها ،حتى غدت حياة الإنسان منظمة وفق قانون إلهي محكم ودقيق. إذا سار وفق منهجه نجح وفاز، وإذا تخطاه ونآي أنه خاب وخسر.

وتعد الأخلاق الفاضلة من أهم الأسس التي اعتمدها الإسلام في بناء الفرد وإصلاح المجتمع، إذ بها يتم دينه وتصلح بها دنياه وأخراه جميعاً، قال رسول الله ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». إن سلامة المجتمع وقوة بنيانه، وسمو مكانته، وعزة أبنائه مرهونة بتمسكه بفضائل الأخلاق - كما إن انهياره وشيوع الانحلال والانحراف والفساد فيه مقرون بنبذه للأخلاق الحميدة والابتعاد عنها.

ولقد اهتمت الشرائع والأديان بوقاية أبنائها من الأمراض الأخلاقية التي تفتك بالمجتمع فتكاً ذريعاً، وسعت بتعاليمها ومبادئها إلى تحذير الأفراد من أخطار الأخلاق الفاسدة.

ويبين لنا التاريخ أن كل أمة نهضت، وكل حضارة أزدهرت وتطورت كان بفضل أبنائها الذين ملكوا نفوساً قوية وعزيمة صادقة وهمماً جبارة، وأخلاقاً حميدة، وسيرة فاضلة.

فهؤلاء ابتعدت نفوسهم عن سفاسف الأمور ولم يقعوا فريسة للأغلال والفساد أو أسرى الملذات والشهوات أو مطية للجهل والتخلف، بل انطلقوا بقيمهم ومبادئهم حتى بنوا الحضارات.

وهذا يتجلى واضحاً في الإسلام لكل باحث منصف يرى في الإسلام كنوزاً حافلة بالنفائس دونها ماورث الناس من فلسفة اليونان والرومان فقد قيل لعالم مسلم: هل قرأت أدب النفس «لأرسطو»؟ فقال: بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام..!![1] ولقد حدد رسول الإسلام الغاية الأولى من بعثته والمنهاج المبين في دعوته بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2] وهذا هو البيان الإلهي يحدثنا عن رسول الله ويصفه.

«وإنك لعلى خلق عظيم» القلم: ٤. ويحدثنا في موضع آخر عن بعض أخلاقه ﷺ: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» (الأعراف: ١٩٩). وفي صحيح مسلم أن سعد بن هشام سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله فقالت: «كان خلقه القرآن» فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً[3].

وهذا هو أنس بن مالك رضي الله عنه - خادم رسول الله - يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً. وقال: مامسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ولقد خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي قط؛ أفٍ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟![4]

هذا وقد ربط الإسلام بين الظاهر والباطن فلم يأمرنا بطقوس مبهمة ولا عبادات غامضة ولا بفرائض غيبية لا معنى لها. بل هي فرائض وتكاليف لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل مستمسكاً بها مهما تغيرت الظروف، ملتمساً في المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة، والقرآن والسنة يؤكدان على ذلك فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥) ففيها تطهير من سوء القول وسوء العمل.

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الأغنياء بل هي غرس لمشاعر الحب والحنان والرأفة للغير وتوطيد العلاقات للتعارف والألفة بين شتى الطبقات قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة: ١٠٣).

من أجل ذلك وسع النبي ﷺ في دلالة كلمة «صدقة» التي ينبغي أن يبذلها المسلم فقال: (تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الردئ البصر لك صدقة)(٥) كذلك الصوم لم ينظر إليه الإسلام على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة، بل جعله خطوة إلى حرمان النفس من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة فقال الرسول الكريم ﷺ: (ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل إني صائم)(٦).

وقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣)، كذلك فريضة الحج قد ينظر

إليها الإنسان على أنها رحلة مجردة من المعاني الخلقية ولكنها رحلة تحمل بين طياتها جملة من الأخلاق الحميدة ففي كل ركن منه وكل سنة فيه تحث على التحلي بخلق ما قال تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

وهكذا يتضح لنا أن تلكم العبادات هي مدارج الكمال المنشود وروافد التطهر الذي يصون الحياة، ويعلي شأنها فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكى قلبه وينقي صدره ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى(٧). وقد جعل الله الأخلاق الفاضلة سبباً تنال به الجنة العالية فقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

والخلق هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال الإرادية الاختيارية من حسنة وسيئة، وجميلة وقبيحة، وهي قابلة بطبعها لتأثير التربية الحسنة والسيئة فيها، فإذا ما ربيت هذه الهيئة على إيثار الفضيلة والحق وحب المعروف والرغبة في الخير، وروضت على حب الجميل وكراهية القبيح وأصبح ذلك طبعاً لها تصدر عنه الأفعال الجميلة بسهولة ودون تكلف قيل فيه: خلق حسن كخلق الحياء، والحلم والأناة والصبر والتحمل والكرم والشجاعة وما إلى ذلك.

أما إذا أهملت أو ربيت تربية سيئة حتى صارت الرذائل تصدر عنها بدون تكلف قيل فيها: خلق سيىء وذلك كالخيانة والكذب والطمع والجفاء والغلظة والفحش وما إلى ذلك.

وقد أثنى الله على نبيه ﷺ بحسن الخلق فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، وأمره بمحاسن الأخلاق فقال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت: ٣٤).

والرسول ﷺ يشجع على الالتزام بالأخلاق الحسنة والابتعاد عن الفاحش منها فقد روى الترمذي عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء»(٨) وقال: «البر حسن الخلق» وسئل عن أي الأعمال أفضل؟ فقال: (حسن الخلق) وسئل عن أكثر ما يدخل الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال الفم والفرج)(٩) وروى الترمذي عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً وخياركم خياركم لنسائهم»(١١).

وفي الحقيقة أن الحاسة الخلقية انبعاث داخلي فطري، وأن القانون الأخلاقي قد طُبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها(١) ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾. (الشمس: ٧، ٨).

فالإنسان بفطرته يستطيع أن يميز بين أنواع السلوك وبين ماهو خير وشر وبين ما هو جميل وقبيح. غير أن هذا القانون الأخلاقي المطبوع فينا ناقص وغير كافٍ(١٢).

والإسلام يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، فهو يكرس جهوداً ضخمة للتغلغل في أعماقها وغرس تعاليمه في جوهرها حتى تستحيل جزءاً منها. والأديان لن تخرج عن طبيعتها في اعتبار الخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة.

وفي ذلك تنويه بقيمة الإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء، فالنفس المختلة تثير الفوضى في أحكم النظم، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة، والنفس الكريمة تحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير. ومن هنا كان الإصلاح النفسي الدعامة الأولى لتغليب الخير في هذه الحياة. ولذلك يقول المولى. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد: ١١) فالإسلام في علاجه للنفس ينظر إليها على أنها فطرة طيبة ترمي إلى الخير ومنها نزعات طائشة تشرد بها سواء السبيل وتزين لها الشر.

فالإنسان يتنازعه تياران: الخير والشر قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٧ - ١٠).

وقد بين الإسلام طريق العلاج للنفس وطريق النجاة في الدنيا وسبيل إصلاح النفس البشرية وذلك بالرجوع إلى الدين إيماناً وعقيدة لا بالإلحاد والإعراض، يقول تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر: ١). ويلفت القرآن الكريم النظر إلى هذه الحقيقة الفطرية يقول تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون: ٧١). وقال منبهاً على طريقي الخير والشر في الإنسان: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج: ١٩ - ٢٢).

والإسلام جاء ليحترم الفطرة الخالصة ويكبح الأهواء الجامحة، ويقيم السدود في وجهها. وأمر بالفرائض والعبادات بوصفهما ضروريان لتدعيم الفطرة وترويض الهوى لتكوين الخلق الحسن والمسلك المستقيم.

وحقاً فالإيمان القوي يلد الخلق القوي حتماً وأن انهيار الأخلاق وفساد المجتمعات مرده إلى ضعف الإيمان أو فقدانه كله بحسب مقدار الشر الموجود(١٣).

ومجتمع بلا عقيدة هو مجتمع بلا أخلاق ينتشر فيه الفساد واستحلال المحرمات كما هو الآن في المجتمعات الغربية والإنحلال الخلقي الذي نسمع به كل يوم في الصحف.

وقد وضح لنا صاحب الرسالة ﷺ هذه الحقيقة وقررها في أكثر من موضع لأصحابه وأكد على ضرورة ربطها بالعقيدة.

فيقول الرسول الكريم ﷺ «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل: من يارسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»(١٤)!!، وكذلك حين يعلم أصحابه الإعراض عن اللغو فيقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١٥).

كذلك نرى إجابة الرسول ﷺ لبعض الصحابة حين سألهم بأسلوب من أساليب التربية النبوية: أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»(١٦).

كذلك يوضح لنا الرسول ﷺ بأسلوب آخر من أساليب التربية النبوية وهو أسلوب ضرب الأمثلة للتأكيد على المعنى أكثر فقال «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد»(١٧)، «والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»(١٨).

كذلك دلل الرسول على من لم يكن فيه تلك الخصال الحسنة لا يعد مؤمناً بل منافقاً فقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم» (١٩).

وهكذا وجدنا القرآن والسنة – مصدراً التشريع الإسلامي – قد رسما الطريق القويم للمسلم، والمنهج المستقيم للمؤمن. وأخذا يرسمان الطريق للمسلم ماله من حقوق وما عليه من واجبات ما يجب أن يتحلى به من خصال وصفات وما يجب أن ينتهي عنه وذلك من خلال حياته ﷺ وتحري الصحابة كل ما يفعله الرسول سواء أكان واجباً أم مباحاً أم مندوباً أو مسنوناً مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (الأحزاب: ٢١) لم يسأله أحد ورده خائباً، وكان دائم البشر، سهل الطبع، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ولا عتاب، ولا مداح، قالت عائشة: ماكان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: لبيك ويحكى لنا أبو أمامة عن بعض خلق رسول الله ﷺ فقال: خرج علينا رسول الله متوكئاً على عصا فقمنا له فقال: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً. وقال: إنما أنا عبدٌ آكل ما يأكل العبد، واجلس كما يجلس العبد، وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، ويعود المساكين

ويجالس الفقراء ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس... وكان ضحكه تبسما وكلامه فضلا، لا فضول فيه ولا تقصير(٢٠).

وكان رسول الله يحب الطيب والرائحة الطيبة وقد سِيقتْ إليه الدنيا بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها. فأعرض عن زهرتها ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقه عياله.

والأمثلة في حياة الرسول كثيرة جداً لا تحصى والمعاملة الحسنة لم تكن مقتصرة على المسلمين مع بعضهم البعض ولكن كذلك شملت أهل الأديان الأخرى فقد ورد عن ابن عمر أنه ذبحت له شاه في أهله فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله يقول: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٢١) وكذلك أمرنا الإسلام بصلة الرحم حتى وإن كان ذوى الرحم على غير الإسلام فقال الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥).

ومن أقوال الإمام ابن تيمية «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة».

فالخلق هو الدين كله وهو الدنيا كلها. وقال الحسن عن حسن الخلق: حسن الخلق بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى.

وقال آخر: حسن الخلق أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريباً. وقال آخر: هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى(٢٢).

والمشكلة التي نراها في العالم الإسلامي أن هناك جفوة بين المسلم والالتزام بالأخلاق التي نادى بها الإسلام وحث عليها في الكتاب والسنة ونرى الاسلام

في وادٍ وكثير من المسلمين في وادٍ آخر، يكتفون من الأسلام بالإسم والهوية والجنسية فحسب، بعيدين عن تعاليمه غير ملتزمين بتوجيهاته.

وهذا ما يفسر لنا النكبات التي تلاقيها الأمة كل يوم والهزائم العسكرية والنفسية فالتمسك بالأخلاق الحميدة يعد دعامة للرقي وأساساً لتبوأ موقع الصدارة فكانت قوة السلف وسيادتهم وعزتهم نابعة من الإسلام فبالتمسك بالكتاب والسنة تحقق العزة والقوة والإزدهار وهذا الكتاب ماهو إلا صورة موجزة عن الأخلاق الفاضلة الحميدة التي يجب على المسلم أن يتمسك بها ويحيا بها حتى يكون مطبقاً لدين الله ملتزماً بشرعه ليفوز إن شاء الله بجنته ونعيمه نسأل الله أن يعيد المسلمين إلى دينهم وقرآنهم وسنة نبيهم رداً جميلاً إنه سميع قريب مجيب.

تعريف الأخلاق

أولاً : التعريف اللغوي :

الأخلاق جمع خُلق يطلق ويراد به عدة معان منها :

(أ) الطبع وهو الصفة الراسخة التي جبل عليها الإنسان دون إرادة منه ودون قصد إليها أو سعي في طلبها .

(ب) العادة وهي الصفة الراسخة التي يكتسبها الإنسان عن طريق المران والتدريب أي بإرادته وقصده .

(جـ) السجية : بضم اللام وسكونها ومحيطها أوسع يشمل المطبوع والمكتسب الذي صار عادة(٢٣) . وجاءت كلمة الخلق بمعنى المروءة والدين .

أما التعريف الإصطلاحي :

اختلف علماء الأخلاق وفلاسفته عندما أرادوا صياغة تعريف لعلم الأخلاق ، وتعددت تعريفاتهم تبعاً لاختلاف مذاهبهم الأخلاقية وسنذكر بعضاً من هذه التعريفات ، مع ذكر تعقيبات عليها ثم نخلص إلى مفهوم عام للأخلاق ومن أبرز تعريفات العلماء للأخلاق ما يلي :

- **علم الخير والشر**. عرف بعض العلماء علم الأخلاق أنه علم يبحث فيه عن الخير والشر والحسن والقبيح وأن الإنسان عن طريق هذا العلم يستطيع أن يميز بين كل منها فيسير في طريق الخير والفضيلة ويبتعد عن طريق الشر والرذيلة .
- **علم الإنسان** : ومقصدهم من ذلك أنه علم يبحث في الأعمال التي تصدر عن الإنسان ويصدر حكمه على هذه الأعمال الإنسانية ويرسم طريق

السعادة للإنسان ويرشده إلى أسبابها وهذا التعريف للكاتب الفرنسي «باسكال» وهذا التعريف أوسع بكثر من دائرة علم الأخلاق لأنه يتناول سائر العلوم التي تدخل في دائرة الإنسان.

- **علم الواجب والواجبات** : ومقصدهم من ذلك أنه يهدي الإنسان إلى مايجب عليه عمله وما يجب عليه تركه أي الأشياء التي ينبغي أن يفعلها والأمور التي سينبغي أن يبتعد عنها كي يسلم من عذاب ربه(٢٤).

وهذه التعريفات على كثرتها ليس فيها تعريف يصلح ليكون تعريفا لعلم الأخلاق وغير منطبق عليه شروط التعريف العلمي بأن يكون «جامعاً مانعاً» جامعاً لكل جزئيات المعرف ومانعاً من دخول غيره فيه.

فالتعريف الأول:

ضيق لا يشمل جميع مباحث علم الأخلاق لأن هذا العلم وإن كان يبحث في الخير والشر فهو ايضاً يبحث في السمات التي إن توفرت في عمل ماكان خيرا والتي إن توفرت في سلوك ما كان شرا كما يبحث في الأمور التي ينبغي ان يكون عليه السلوك الفاضل أي المقاييس الأخلاقية فهو مانع غير جامع.

كذلك التعريف الثالث يؤخذ عليه ما أخذ على التعريف الأول أما التعريف الثاني فهو وإن كان جامعاً إلا أنه غير مانع لأنه أدخل في علم الأخلاق ماليس من اختصاصة لعلوم الحياة والطب النفسي وغيرهما كما شمل ماليس للإنسان دخل فيه مثل لونه وحجمه وسائر الأعمال الإضطراريه وتلك الأعمال لايمكن ان تدخل في نطاق الاخلاق ولايمكن ان يحاسب الانسان ثوابا أوعقابا على ماليس في وسعه(٢٥).

وهناك تعريفات أخرى اصطلاحية وهي :

قال حاجي خليفة في مادة أخلاق عن ابن صدر الدين الشروان المتوفي سنه ١٠٣٦هـ : هو «علم بالفضائل وكيفيه اقتنائها لتتحلى النفس بها وبالرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها»(٢٦).

ومسكويه يعرف الأخلاق في كتابه «تهذيب الاخلاق» بأنه : (حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية) ثم بَيَّنَ مسكويه أن الحال ينقسم إلى قسمين :

- منها مايكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب.

- ومنها مايكون مستفاداً بالعادة والتدريب وبالروية والفكر ثم يستمر عليه حتى يصير ملكة وخلقاً. فهو يتحدث عن الأخلاق المكتسبة التي تنمو وتثبت بالسعادة والاستمرار(٢٧). ويقول الغزالي في الإحياء في معنى حسن الخلق :

الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معاً يقال : فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الظاهر والباطن. فيراد بالخَلق الصورة الظاهرويراد بالخُلُق الصورة الباطنة وذلك لأن الانسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة.

والخُلُق عبارة عن هيئة في نفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر منها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً. وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.

وبناء على ذلك فالخلق لابد فيه من أربعة أمور عند الغزالي :

قوة العلم، قوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل.

فالخلق إذن عند الغزالي ليس هو فعل الحسن أو القبيح أو التمييز بينهما وإنما الهيئة النفسية التي تستعد بها النفس لأن يصدر عنها الحسن أو القبح(٢٨).

هذا وعلي ضوء هذه التعريفات يمكن استخلاص مفهوم عام للأخلاق بأنه هو : علم يبحث في الفضائل وكيفية اكتسابها والرذائل وكيفية اجتنابها والبعد عنها ويوضح المقياس الذي تقاس به أعمال الإنسان الإدارية من حيث هي خير أو شر مع تحديد مسئولية الفاعل وجزائه على هذه الأعمال والغاية التي يتوخاها علم الأخلاق من كل ذلك هو تحقيق السعادة النفسية والأمن النفسي في حياته الآجله والعاجله.

- ونشير إلى أن هناك فرق بين كلمتى «خَلْق وخُلُق» فهما وإن تقاربتا في النطق إلا أن الأولى يراد بها الصورة الظاهرة المدركة بالحواس، والثانية يراد بها الصورة الباطنة المدركة بالبصيرة.

وكذلك هناك ارتباطٌ وثيقٌ بين مفهوم الأخلاق ومفهوم الإيمان فأى تقصير في أحدهما لابد أن يكون له صدى في الجانب الآخر ولذلك يقول الرسول ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» (٢٩) ومن هنا كانت الأخلاق الإسلامية صدى للإيمان والعمل به ومقتضياته. كما هي صدى لمشاعر ساميةوتعبيرعن أحاسيس عميقه بالغة العمق في ارتباطها بالله سبحانه وتعالى.

موضوع علم الأخلاق

موضوع علم الأخلاق :

يعنى علم الأخلاق بأعمال الإنسان الارادية الصادرة عن تفكير وروية أو بعبارة أخرى هو جملة القواعد والسلوك التي ترسم لنا طريق السلوك الحميد وتحدد لنا براعته وأهدافه مكتملة ، وقيل موضوعه البحث عن أنواع الملكات الفاضلة التي يجب علينا التحلي بها كالإخلاص والصدق والعفه... الخ. ويسمى «علم الأخلاق العملي»(٣٠).

ولكن هل كل مايصدر عن الإنسان صالح لأن يحكم عليه بالخير والشر؟ والجواب أن الأعمال التي تصدر عن الإنسان متعددة منها : الأعمال الإرادية وهي التى تقع بإرادة الإنسان واختياره مثل تناول الطعام والشراب وإختيار العمل والمسكن والذهاب إلى المسجد وذهاب المريض إلى الطبيب والكذب وشهادة الزور والحق وقول الصدق وغيرهم وهناك أعمال غير ارادية والتي تصدر عن الإنسان لابإرادة منه وليس له دخل في حدوثها وذلك كالتنفس والدورة الدموية وغيرها.

فأي هذه الأعمال يصلح لأن يكون موضوعاً لعلم الاخلاق؟

والجواب : أن الأعمال الإرادية وما يمكن الاحتياط له من الأعمال المشتبهة فيدخل في دائرة علم الأخلاق ، أما ما يصدر بدون إرادة ولايمكن الاحتياط له فليس موضوعاً لعلم الأخلاق فهي أعمال اضطرارية فلا نستطيع أن نقول أن فلاناً الأبيض صالح والأسود طالح !!(٣١).

هل الأخلاق فطرية أم مكتسبة؟

اختلف العلماء قديما وحديثا فلاسفة وغير فلاسفة للإجابة عن هذا السؤال ولذلك نستعرض بعض هذه الأقوال ثم نعرض رأى الاسلام في ذلك.

يقول الفيلسوف الألماني (شو بنهاور) يولد الناس أخيارا وأشرارا... كما يولد الحمل وديعا، والنمر مفترساً وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان.

ويقول (كَانتْ) إن الذي يشاهد موقف الإنسان في ظرف معين ويعرف سوابق تصرفاته في مثل هذا الموقف يستطيع ان يتنبأ تنبوءا هادفاً بما سيفعله في هذا الظرف المعين كما يتنبأ العالم الفلكي بكسوف الشمس وخسوف القمر في ساعة محددة.

ويقول الفيلسوف الهولندي (سيبنوزا).. أن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية تحدث ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية الهندسية كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث تساوى زاويتين قائمتين.

فهؤلاء الفلاسفة الأوربيون غلبت المادة على عصرهم ورأوا مافيها من قوانين علميه ثابته وأرادو ان يبسطوا نتائجها على سائر العلوم حتى الاجتماعيه والاخلاقية، فهم لذلك يصورون لنا البشرية عاجزة عن التحول والتطور وهذا أمر غير مقبول عقلاً وشرعاً لأن هذا ينافي الحكمة والضرورة في إنزال الكتب وارسال الرسل ووضع الشرائع والقوانين وحاشا ان يكون ذلك كله عناءً بغير جدوى أو تكون دراسة الأخلاق نفسها ملهاة أو شبه ملهاة(٣٢).

وأول ما نلاحظه على هذه الأقاويل شذوذها ومخالفته لما أجمع عليه المفكرون في نظرتهم للأخلاق مع اختلافهم في شأن الفطرة الإنسانية وانقسامهم إلى مذاهب ثلاثة :

١ - إن الإنسان خير بطبعه والشر عارض له ، وهو مذهب المتفائلين أمثال جان جاك روسو وسقراط ، وذهب إليه ابن تيمية وابن القيم وجماعة من السلف(٣٣) .

٢ - إن الإنسان شرير بطبعه والخير طارىء عليه ؛ وهو مذهب المتشائمين كالبوذيه واشباههم وكذلك مذهب أفلوطين المصري ومعظم رجال الكنسية المسيحية حيث يرون ان الانسان منذ خطيئة آدم قد صار شريرا لاحيلة له في إصلاح نفسه فلا تصير إلى الخير إلا بالتأديب والتهذيب أو عوامل البيئة والوراثه .

٣ - إن الإنسان خُلق مستعداً للخير والشر جميعا وهو مذهب جمهور الفلاسفه وعلماء النفس والتربية في العصر الحديث وقال به كل من الغزالي وابن خلدون وقبلهما ابن مسكويه . وهذا هو الرأى الذى نميل اليه لأنه موافق لما قرره الإسلام . فالإسلام يقرر إن الإنسان خلق إلى الخير أميل منه إلى الشر ، والنصوص الإسلامية تؤكد هذا المذهب الوسط قال تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (الإنسان : ٣) ، ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾(البلد : ١٠) ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس : ٧ ، ٨) ، والفطرة الإنسانية تؤيد هذا ، قال رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة»(٣٤) فنجد بعض الأطفال يتصفون في

صغرهم بالجبن أو البخل أو الحياء أو الشجاعة بدون تدريب ثم يأتي دور الدين والتربية والبيئة لتشكيل وتهذيب هذه الغرائز الفطرية التي خلق الإنسان مزوداً بها، فالإنسان فيه الجانبان الفطرى والكسبي.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾. (التين: ٤-٦).

ولكن هل يمكن التأثير على الأخلاق الفطريه؟ أو هل يمكن تقويم الأخلاق واكتساب الجيد منها والتخلي عن السيء؟

والجواب: إن الفطرية إذا أريد بها الغريزة فإن التأثير فيها بالتغير غير ممكن عادة. ولكن الممكن هو التحكم في الغريزة حتى يكون على مستوى وسط بدون إفراط وتفريط اما إذا أريد بالفطرية الميول والرغبات فإنه يمكن التأثير فيها بالتعديل والتربية.

ولذلك كان جهاد النفس من أعظم ألوان الجهاد وأولاه.

والنفس الإنسانية قد خلقت قابله للكمال. وفي ذلك يقول الغزالى بأن النفس الانسانية ناقصه بالفعل ولكنها منطويه على إمكانيات الكمال، قابلة بالقوة لما شاء الله من درجات الترقى بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. ولذلك جعل تسوية النفس من فعل الباريء أما تزكيتها وتسويتها من عمل الإنسان(٣٥).

والخلاصة أن الشرع أمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة ونهى عن التخلق بالأخلاق الرديئة ولو لم يكن ذلك ممكناً ومقدوراً للإنسان لما ورد به الشرع فلا يكلف الله

نفساً إلا وسعها، ولكن مع هذا فإن الناس يتفاوتون في مقدار أهليتهم وقدرتهم واستعدادهم لاكتساب الأخلاق أو تعديلها كما يختلفون في مدى أهليتهم وقدرتهم واستعدادهم لتلقي العلوم المختلفة أو إدراك الحقائق الدقيقة نظراً لتفاوت ذكائهم(٣٦).

وقد يجبل بعض الناس على أخلاق بحيث تكون بارزة فيهم وظاهرة فيعرفون بها، والدليل على هذا حديث رسول الله ﷺ وقد جاء فيه ان رسول الله ﷺ قال لأشج عبدالقيس «إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى ورسوله الحلم والأناة» قال يارسول الله أنا أتخلق بهما أم الله تعالى جبلني عليهما؟ قال رسول الله «بل الله جبلك عليهما» فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خصلتين يحبهما الله تعالى ورسوله»(٣٧).

هل الأخلاق قابلة للتعديل والتغيير؟

يرى البعض أن الأخلاق غير قابلة للتغير ؛ لأن الطباع لا تتغير واستدل على هذا بأمرين :

الأمر الأول : أن الخُلُق هو صورة الباطن ، كما أن الخَلْق هو صورة الظاهر فإلخلقة الظاهرة لا يُقدر على تغيرها . فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجرى هذا المجرى .

الأمر الثاني : أنهم قالوا : حسن الخُلق يقمع الشهوة والغضب ، وقد جُرِّب ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فالاشتغال بذلك تضييع للزمان بغير فائدة(٣٨) .

وهذا الرأي ظاهر البطلان بدليل أننا إذا تأملنا حقيقة الخُلُق في الفكر الإسلامي فإننا نلاحظ أن الأخلاق في نظر الإسلام ليست مجرد ألفاظ أو شعارات تردد ، بل هي على العكس من ذلك سجية أو عادة أو اتجاه راسخ في النفس تتعاون في تكوينه عوامل وراثية تتمثل في الذكاء والمزاج والغرائز وما إلى ذلك . وعوامل بيئية تتمثل في التربية والتعليم والتدريب والتوجيه . فالخُلق قابل للتعديل والتغيير والتطوير عن طريق التربية والمران والرياضة النفسية والمجاهدة(٣٩) .

ولا نعني بذلك أن جميع الأخلاق قابلة للتغيير . بل هناك من الأخلاق ما هو ثابت لا يقبل التغيير والتطوير في جوهره الأصلي . فهو ثابت مطلق لا يتقيد

بزمان ولا مكان. فالحكمة والشجاعة والعفة والصدق وما إلى ذلك من الفضائل هي في جوهرها الأصلي قيم إنسانية عامة يقتضيها الوجود الإنساني في كل زمان ومكان. لكن هذا الثبات لا ينافي أن الأفراد يختلفون في طرق استجابتهم لهذه القواعد والقيم، وفي درجة تمسكهم بها. وحسب الظروف الاجتماعية التي قد تطرأ على بعض العصور كمثل التخلي عن الصدق شيئاً إذا كان به ضرر بمصلحة الأمة وأمنها. وهذا التغيير ليس أمراً يسيراً بل هو صعب نسبياً؛ لأنه من الصعب على النفس أن تتخلى عن عاداتها واتجاهاتها الراسخة(٤٠).

وقد أيد هذا الرأي معظم علماء الأخلاق من أمثال الإمام الغزالي – حجة الإسلام – حيث قد تصدى بالرد على من يقول بعدم تغيير الأخلاق وقال:

(لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: (حسنوا أخلاقكم)(٤١)، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير الخُلق ممكن في الحيوان، إذ ممكن أن ينتقل الحيوان المتوحش إلي مستأنس، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق... فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعها وقهرها بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه(٤٢).

ثم أوضح لنا بعد ذلك أن الطبائع مختلفة بعضها سريعة القبول، وبعضها بطية القبول. فحسن الخُلق يرجع إلي اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والشرع.

ويقرر الغزالي بعد ذلك أن هذا الكلام لا يبعد أن يكون في الفطرة ما قد ينال بالإكتساب(٤٣).

ويذهب لهذا الرأي أبو القاسم الأصفهاني حيث يقرر على رمكانية تغيير الخلق ويؤكد هذا بقوله تعالي: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٩ - ١٠).

فالأخلاق قابلة إلى أن تتطهر مما علق بها من أخلاق رديئة. مع اختلاف درجات التغيير. وإن الأخلاق منه ماهو طبيعي في النفس ومنها ما ينال بالإكتساب والتعلم(٤٤).

وكذلك العالم الأخلاقي «مسكوية» يذهب لهذا الرأي أيضاً ويرى أن الأخلاق قابلة للتعديل إما بسرعة أو ببطء، يشهد بذلك الواقع بانتقال الصبي الناشيء من حال لحال تبعاً للبيئة التي تحوطه ولنوع التوجيهات التي يتلقاها(٤٥).

وفي حقيقة الأمر نقول أنه لا ينكر إمكانية تعديل الخلق إلا مكابر ومعاند ومنكر للشاهد الملاحظ فالحياة من حولنا تؤكد هذه الحقيقة فنرى الطفل يتغير كل يوم من حال إلى حال وكذلك الإنسان عامة في جميع أطواره قد يكون اليوم في حال ويصبح غداً في حال آخر، وكذلك لو لم يكن هذا الأمر ممكناً لما أرسل الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين، ولما كان هناك جدوى من النصائح والمواعظ والتأديب. وحاشا لله تعالى أن يأمر بشيء مستحيل وأن يكلف الإنسان مالايطيق.

فالشرع وحده هو الذي له السلطة التشريعية في حياتنا والقرآن ذاته يؤكد لنا هذه الحقيقة في كثير من آياته قال تعالى: ﴿ إن الحكم لله ﴾، ﴿ آلاله الحكم ﴾، ﴿ لا معقب لحكمه ﴾. فالمسلم يستضيء بنور عقله ويسترشد به وفق منهج الله، حيث إن الحاكمية المطلقة لا تكون إلا لذلك المصدر المعصوم، الذي الا يتعتريه الزيغ والباطل وهو معيار الشرع والوحي.

ثمرات علم الأخلاق على الفرد والمجتمع

الأخلاق من الموضوعات التي تشغل مكاناً كبيراً من اهتمام الإنسان، وتستحوذ على تفكيره، أو ينبغي أن تكون كذلك، فالإنسان لا يستطيع أن يستغني عن الأخلاق في أية لحظة من لحظات حياته، ولا يستطيع أن يستغني عن مثل أعلى في سلوكه أو معيار للحكم على أفعاله وأفعال الناس بالخير أو الشر. ولا يمكن أن يتصور المرء إنساناً يعيش بلا ضمير يحاسبه إذا أخطأ ويلومه إذا استمر في الخطأ وتمادى في الشر.

والحاجة إلى البحوث الأخلاقية تفرض نفسها في الوقت الذي بدأ فيه الناس الإنحراف عن الأخلاق شيئاً ما وبدأ التشكيك في الأخلاق السائدة. وبدأ التقليد الأعمى لكل ما هو غربي والانبهار بكل ما هو أجنبي. ولقد حظيت القيم الأخلاقية بعناية بالغة في الإسلام باعتبارها أساس بناء الشخصية المسلمة من أجل ذاتها، ومن أجل الآخرين. وهي سياج يحمي منجزات المجتمع الإسلامي الحضارية والتنموية من الانهيار والتسيب والانحلال، فهي ضابط لكل جهد مبذول، تضبط إيقاعه وتحوله إلى فعالية حقيقية، يُلحظ أثرها في حياة الناس قدماً نحو تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

ولهذا يعد الاشتغال اليوم بعلم الأخلاق ذا أهمية بالغة. ونستطيع أن نستخلص بعض ثمار التمسك بأمهات الأخلاق والقيم الفاضلة فيما يلي:

١ - تحقيق المثل الأعلى في جانبيه يثمر الحياة الطيبة، ويحقق السعادة، والسيادة، والقيادة، والتمكين في الأرض.

٢ -إن دراسة علم الأخلاق لها فائدة عظيمة في ترشيد السلوك الإنساني وتوجيهه نحو القيم الأخلاقية والمثل العليا على أساس من الفهم والوعي والإدراك.

٣ - تقوية إرادة الإنسان على الخير وسلوك الطريق القويم، وتنشيط العزيمة على المضي في سبيل الفضيلة، والاهتداء بها في أعمالها.

٤ - إن دراسة الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية ونقدها من غير أن يخضع في حكمه للعرف أو العادة أو يتأثر بحكم الزمان والمكان.

٥ - إن دراسة الأخلاق لا تجعل جميع الناس فضلاء فهذا أمر يعتمد بدرجة كبيرة على الاستعداد الشخصي لكل فرد ولكنها تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلةوفياً بعهدها(٥٠).

٦ - أن كل ما كلفنا الله عز وجل هو تأكيد لإنسانيتنا، ورفع لمستواها، والسير في خط التميز عن الحيوان - التميز العقلي والروحي والخلقي والسلوكي والاجتماعي - الذي يجعل للحياة معنى، وللانسانية خصائصها الواضحة(٥١).

٧ - الأخلاق الإسلامية ارتقاء بالإنسان إلى كمالاته كلها. لأنه أوجب له حقوقاً نحو الله، ونحو الآخرين، وشرع عليه حقوقا. لله وللإنسان.

٨ - تفجير لطاقات الإنسان كلها في طريقها الصحيح: العلمية والعقلية، والروحية، والنفسية، والجسدية، فلا تبقى طاقة معطلة: العلم فريضة،

والتفكير فريضة، والأخلاق الفطرية اكتسابها والتحقق بها فريضة، وتدريب الجسم فريضة.

٩ - بالأخلاق الإسلامية وحدها يحقق الإنسان حكمة وجوده، ويعثر بها على محله الصحيح في الوجود وهو أنه سيد الكون وعبد الله، وخليفته في زرضه الذي سخر له كل ما في الكون.

١٠ - أنه في ظل الأخلاق الإسلامية وحدها يؤدى الإنسان يؤدي لكل ذي حق حقه حيواناً كان أو إنساناً أو جماداً أو نباتاً فضلاً عن قيامه بحقوق رب العالمين(٥٢).

١١ - دراسة علم الأخلاق تعرف الإنسان الخير والشر وتعرفه كذلك بميدانهما وحدودهما. حسب قوة وإرادة وعزيمة المسلم.

١٢ - يكفي المسلم شرفاً وتمسكاً بتلك الأخلاق أنها ربانية شمولية جاءت من القرآن والسنة مصدري التشريع الإسلامي.

١٣ - غاية الأخلاق كما قال الإمام الغزالي أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل فيكون عمله موزوناً بعمل الشرع والعقل(٥٣).

تقسيم علم الاخلاق

عرفنا سابقاً أن الأخلاق منها فطرى موجود أودعها الله في جبلة الانسان ومنها مكتسب وهذا يرتبط بدور المربين والمشرعين وأهل الفكر في إعلاء بعض الغرائز والسمو بها في الاطار الذى شرعه خالق الخلق، ففى شرع الله الأساس في إصلاح البشرية ولقد درج علماء الاخلاق القدامى والمحدثين على تقسيم علم الأخلاق إلى قسمين :

١ - الجانب النظرى ٢ - الجانب العملي

أما الجانب النظري:

فهو يختص بالبحث في ماهية الخير والشر ووضع قواعد السلوك ومقاييس الأعمال وبالبحث في الضمير الانسانى حقيقته ومظاهره كما أنه يعنى بتحديد غاية الإنسان من هذه الحياة وكما له الذى ينشده والذي تتحقق به سعادته ومايتعلق به من أبحاث(٥٤).

والقرآن في هذا الجانب لايكتفي بأن يضع قاعدة السلوك على وجه اكثر شمولاً وتفصيلاً كما لم يفعله أي تعليم عملي فقد وجدناه يرسى تحت هذا النباء الضخم قواعد من المعرفة النظرية أعظم متانة وأشد صلابة(٥٥).

أما الجانب العملى :

فهو يختص بالرقابة لممارسة الجانب النظرى ومدى تطبيقه في الحياة الواقعيه للفرد والجماعة بحيث يكون من شأنه الحكم بمطابقة الفعل أو عدم مطابقته لقانون الأخلاق، وبموافقته أو عدم موافقته لمعان الحق والواجب ولمقياس الأخلاق سواء تعلق ذلك بالفرد أو الجماعة.

ونظراً لاهتمام علم الأخلاق بالجانب العملي إلى جانب عنايته بالجانب النظرى اهتم به المربون والمرشدون في شئون التربية نظراً لتقويم سلوك الإنسان.

علاقة الخلق بالسلوك

السلوك : مصدر سلك طريقاً، سولك المكان يسلكه سلكاً وسلوكاً وسلكه غيره، وهو أعمال الإنسان الإرادية، المتجهة نحو غاية معينة مقصودة تهدف إلي تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو روحية أو فكرية سواء كان ذلك لصالح الفرد أو لصالح المجتمع.

والسلوك : سيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه يقال فلان حسن السلوك أو سيء السلوك.

أما الخلق. فهو حال في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شر من غير حاجة إلى فكر وروية فالعلاقة بين السلوك والخلق هي علاقة الدال بالمدلول أو الأثر بالمؤثر(٥٦).

والسلوك عمل إرادي كقول الصدق والكذب والكرم والبخل ونحو ذلك.

يتضح من ذلك أن الخلق حالة راسخه في النفس وليس شيئاً خارجاً مظهرياً فالأخلاق شيء يتصل بباطن الإنسان، ولابد لنا من مظهر يدلنا على هذه الصفة النفسية وهذا المظهر هو السلوك. فالسلوك هو المظهر الخارجي للخلق. فنحن نحكم من السلوك المستمر لشخص ما على خلق، فالسلوك دليل الخلق ورمز له وعنوانه فإذا كان السلوك حسناً دل على خلق حسن وإن كان سيئاً دل على خلق قبيح. فكما أن الشجرة تعرف بالثمر فكذلك الخلق الطيب يعرف بالأعمال الطيبة.

أنواع السلوك: والسلوك نوعان :

الأول : خلقي :

وهو ما كان نابعاً عن صفة نفسية، قابلاً للمدح أو الذم كإعطاء الفقير، والإنفاق في وجوه الخير، حال كونه نابعاً عن جود وكرم، وكذلك الإقدام دفاعاً عن الحق وإزهاقاً للباطل حال كونه نابعاً عن شجاعة. فهذه صفات حميدة لأنها من فضائل الاخلاق فآثارها تابعه لها في الحكم عليها بأنها حميدة، وكالإمساك والتقتير عن بخل وشح، والفرار من ساحة الجهاد بالنفس أو بالكلمة عن جبن وخوف، فهذه صفات ذميمة. روى ابن ماجه عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يارسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أن عليه مقالاً ثم لايقول فيه فيقول أخشيت الناس فيقول الله: فإياي كنت أحق ان تخشى».

النوع الثاني : سلوك إرادى غير خلقى ومنه :

١ - ماهو استجابة لغريزة جسدية كالأكل المباح عن جوع والشرب المباح عن ظمأ، أو استجابة لغريزة نفسية كقراءة قصة إرضاء لغريزة حب الاستطلاع، وجمع المال بالطرق المشروعه إرضاء لغريزة حب التملك.

٢ - ما هو استجابة لترجيح فكرى كأن يرى طالب أن يتجه إلى الجامعة من طريق ويرى آخر أن يتجه من طريق ثان وكأن يفضل طالب الجلوس في المقاعد الأمامية ويرى آخر الجلوس في المقاعد الخلفيه فالسلوك يمارس هنا استجابة لرؤية فكرية ترى أن المصلحة في هذا وذاك.

٣ - ماهو من قبيل الآداب الشخصية والاجتماعية من هذا السلوك كأن ينظم انسان شعره إلى الخلف وآخر ينظمه إلى الإمام وكآداب الطعام والشراب

واللباس وإصلاح مظاهر الجسد. فليس في ذلك شيء يقول الرسول الكريم ﷺ «من كان له شعر فليكرمه»(٥٧)،وعن أبي قتادة قلت : يارسول الله إن لي جمة أفأرجلها؟ قال : نعم وأكرمها»(٥٨).

وعن عطاء بن يسار قال :أتى رجل النبى ثائر الرأس واللحيه فأشار إليه الرسول كأنه يأمره بإصلاح شعره ففعل ثم رجع فقال الرسول ﷺ : «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان»(٥٩)؟

لكن إذا كان يفعل ذلك تشبهاً بالأجانب فهذا حرام لقول رسول الله «من تشبه بقوم فهو منهم».

٤ - ماهو من قبيل طاعة الأوامر : قد يكون هذا السلوك طاعة لله ورسوله ﷺ كالحرص على السواك عند الصلاة والحرص على الحضور في الصف الأول في الجماعة لما روى عنه ﷺ أنه قال : «لولا أن أشق على المؤمنين لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»(٦٠).

فالخلق هو عامل يؤثر في سلوك الإنسان وفي مقدرته على تكييف نفسه للبيئة التي يعيش فيها فالعمل الأخلاقى مهما كان راسخا في النفس فإنه لايستغنى عن الفكر والروية والتدبر، وأول مانلاحظه على الأخلاق في نظر الإسلام أنها ليست مجرد ألفاظ تردد أو شعارات ترفع، بل هي على العكس من ذلك سجية أو عادة أو اتجاه راسخ في النفس تتعاون في تكوينه عوامل وراثية تتمثل في الذكاء والغرائز والمزاج وما إلى ذلك، وعوامل بيئيه تتمثل في التربية والتعليم والتوجه والتدريب والتمرين(٦١).

وعلى الرغم من أن السلوك لايصبح خلقاً إلا إذا أصبح سجية وعادة أو اتجاهاً راسخاً في النفس، فإنه حتى بعد ان يصل إلى هذه المرتبة قابل للتغيير والتعديل

والتطوير والانتقال من حالة إلى أخرى عن طريق التربية والتوجيه والتدريب والرياضة الخلقية والروحية، أو عن طريق الإلهام والنفث في الروع اللذين يأتيان من عند الله من غير حيلة أو اجتهاد من الشخص(٦٢).

ما الغاية من الالتزام بالسلوك الأخلاقي؟

الغاية من الالتزام بالسلوك الأخلاقي تقوم على عنصرين:

١ - اكتساب مرضاة الله وابتغاء ثوابه في كل عمل وفي كل حركاته وسكناته كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٢). وقال: ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

٢ - تحقيق أقساط من السعادة المستطاعة التحقيق في ظروف الحياة الدنيا للفرد والجماعة. والنجاة من أقساط الشقاوة التي تجلبها الجرائم والانحرافات

ولاشك ان تحقيق العنصر الأول تحقيق بالتبعيه لكثير من الآمال والأماني الاجتماعية والفردية. والقرآن في كثير من آياته قد عدد المقاصد التي تتحقق لمن نال مرضاة الله.

ففي الأمن والطمأنينه يقول المولي سبحانه ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨).

وفي العافية والرخاء يقول المولى سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وفي السعادة يقول : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (الإنفطار: ١٣ ، ١٤) . إلى غير ذلك من الآيات فالسعادة مرهونة بضوابط سلوك الإنسان ، وأهم الضوابط وأقواها مراقبة الله ، والإخلاص له سبحانه وتعالى(٦٣) .

ويقول الرسول الكريم ﷺ [إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته](٦٤) . وهذا الحديث يدلنا على مدى ارتباط السلوك الأخلاقي بالعبادة بل اعتبار السلوك الأخلاقي من أرقى درجات العبادة ويقول الرسول ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالايعطى على العنف](٦٥) .

والسلوك الأخلاقى في الاسلام يمثل روح الإسلام وحقيقته ونظامه فالخلق رمز العقيدة ، والاستقامة مظهر الإيمان ، والسلوك النظيف ثمرة الاستقامة .

مكونات الخلق وعوامل التأثير فيه :

وهناك عوامل كثيرة يتكون الخلق على أثرها وتؤثر فيه إيجاباً أو سلباً وأهم هذه العوامل ثلاثة :

أولاً : العادة :

يتكون الخلق بالممارسة والاعتياد وبكثرة تكرار الفعل والمواظبة عليه فمثلاً لايسمى الشخص شجاعاً لمجرد ظهور الشجاعة عليه في بعض الأحوال وفي ذلك يقول «أفلاطون» «إن الفضيلة لاتتحقق لعمل فاضل واحد ولكن لكى تكون حقيقه يجب أن تكون نتيجه لماضي عمل طويل» .

ثانياً: عامل الوراثة وهو انتقال صفات الأصل إلى الفرع والوراثة ليست فقط للصفات الحسية بل والصفات العقلية كا الذكاء والشجاعة والعطاء إلى غير ذلك.

ثالثاً: البيئة وهي كل ما يحيط بالانسان من مظاهر الحياة الإجتماعية والطبيعية.

ويراد بالبيئة الاجتماعية ذلك الوسط المحيط بالإنسان في حياته كلها من البيت إلى المدرسة إلى العمل ومايحيط به من أجهزة وثقافة وتوجيه.

ويكفي دليلاً على ماللبيئة من أثر في حياة الناس وسلوكهم قول النبى ﷺ محمد «كل مولود يولد على الفطرة فأمواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(٦٦).

فالطفل عند مولده ونشأته تتنازعه قوتان: فطرة تأخذ بيده إلى الحق وبيئة فاسدة تشده إلى الضلال والانحراف والتهلكة فالبيئة عاملاً موجهاً لسلوك الأفراد وميولهم :وتعديل غرائزهم ونزعاتهم متضافرة في ذلك مع أوساط التربيه الثلاثه : المنزل، المدرسة، المجتمع(٦٧).

أما البيئة الطبيعية فهى مايحيط بالإنسان من مناخ وأرض فالذين يعيشون في بلاد حارة تختلف أخلاقهم عن الذين يعيشون في المناطق الباردة ولذلك يقول «ابن خلدون».

[إن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من الحضر].

وخلاصة القول إن البيئة والوراثه والعادة عوامل مهمة في تكوين أخلاق الإنسان.

فالوراثة تمده بالغزائز والميول والاستعدادات، والبيئة تهيىء لهذه الغرائز الجو المناسب لتميل بها نحو الخير أو الشر ومع هذا لابد من الممارسة والاعتياد حتى يتحول الفعل إلى عادة يصعب تركها.

أما عن مراحل تكون الخلق فهي:

- خاطر : وهو حديث النفس بأي أمر تميل إليه.

- الميل : وهو توجه الإنسان لخاطر من خواطره يتصوره، ويدرك الغرض منها والغاية المترتبة عليه، وإذا تغلب ميل على ميول أخرى صار هذا الميل رغبة.

- والرغبة : هي تغلب ميل على بقية الميول في النفس الإنسانية، فإذا فكر الإنسان في هذه الرغبة ودرسها، وعزم عليها صارت هذه الرغبة إرادة.

- والإرادة : هي صفة النفس التي تخصص رغبة من الرغبات التي مالت إليها النفس لكي تتحقق وتوجد، فإذا ما تكررت الإرادة صارت عادة.

- والعادة : هي الإرادة التي تتكرر وتصدر عن حالة راسخة وهي الخلق(٦٨).

هوامش الفصل الأول

١ - خلق المسلم / محمد الغزالي / دار الكتب الإسلامية / ط١ / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م / ص٤ .

٢ - أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وأخرجه مالك .

٣ - أخرجه مسلم، ذكره الامام الشاطبي في كتاب الإعتصام / جـ٢ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

٤ - أخرجه البخاري (المختصر برقم ١٤٩٣ ، ص ٣٣٤) .

٥ - أخرجه الترمذي في باب ماجاء في نائع المعروف برقم (١٩٥٦) وقال حديث حسن غريب ، وفي سنن الترمذي فيما ذكره الشيخ الألباني برقم (١٥٩٤) .

٦ - أخرجه ابن خزيمة .

٧ - خلق المسلم / ص ٩,٨ .

٨ - أخرجه أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء .

٩ - أخرجه الترمذي (٢٠٠٥) وابن ماجه (٤٢٤٦) من حديث أبي هريرة .

١٠ - أخـرجـه أبو داود (٤٦٨٢) ، والتـرمـذي (١١٦٢) ، والنسـائي (٩١٥٤) والبخاري / ٣٦٨ .

١١ - إحـيـاء علوم الدين / للغـزالي / جـ٣ / ص٧٢ ، ٧٣ ، منهـاج المسلم / لأبي بكر الجزائري / ص١٣٤ ، مكارم الأخلاق / لأبن تيمية / دار الخير / بيروت / ص ٧٢٦ .

١٢ - دستور الأخلاق في القرآن / د. محمد عبدالله دراز، مؤسسة الرسالة /

١٣ - خلق المسلم / ص ١٠ .

١٤ - أخرجه البخاري - الفتح / ١٠ / ٤٤٣ - ح ١٦ - ٦٠ عن أبي شريح الخزاعي .

١٥ - متـفق عليـه من حـديث أبي شـريح الخـزاعي أخـرجـه البـخـاري (٦٠١٩) ومـسلم (٤٨ / ٧٧) .

١٦ - أخـرجـه مـسلم / كـتـاب البـر والصلة والآداب ج ٥٨ (٢٥٨٠) شـرح النووي (١٦ / ١٣٥ - ١٣٦) .

١٧ - أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف وأخرجه الطبراني والبيهقي والطيالسي.

١٨ - أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب وضعفه.

١٩ - مختصر صحيح مسلم / للألباني ص ١٥ ح ٢٧.

٢٠ - خلق المسلم / ص ٣٣، الإحياء / جـ٣ / ص ٥٠١.

٢١ -

٢٢ - الإحياء / جـ٣ / ص ٧٧، منهاج المسلم / ص٣٣.

٢٣ - في الفلسفة والأخلاق / د. إبراهيم محفوظ / ص١٣١، أصول الدعوة. ص ٧٩، أخلاقنا / د. محمد ربيع مجمد جوهري / ص٤٩، الأخلاق في الشريعة الإسلامية / د. محمد عليان / ص ٢٥.

٢٤ - الأخلاق في التصور الإسلامي / د. آمنة محمد نصير / ص٤-٦، منهج التربية النبوية للطفل / تقديم عبدالرحمن حسن حنبكة وآخرون / ص ١٥٧.

٢٥ - في الفلسفة والأخلاق / مرجع سابق ص ١٣٢، الأخلاق في التصور الإسلامي مرجع سابق / ص٦.

١٦ - دائرة المعارف الإسلامية / جـ ١٤ / الشعب / ص٤٤٥.

٢٧ - الإحياء / جـ٣ / مكتبة الإيمان / ١٩٩٦م / ص ٧٨,٧٧.

٢٩ - سبق ذكره / ص ١٣.

٣٠ - الأخلاق / لأحمد أمين / ص ١٢، وانظر كلمات في الأخلاق الإسلامية / د. كمال عيسى / ص٩.

٣١ - في الفلسفة والأخلاق / مرجع سابق ص ١٣٤، ١٣٥.

٣٢ - الأخلاق في التصور الإسلامي / ص ٨,٧.

٣٣ - انظر : كلمات في الأخلاق الإسلامية / ص ٩١، ٩٢، العقيدة والأخلاق / ص ٢٢٦، ٢٣٠.

٣٤ - أخرجه مسلم / ٤ / ٢٠٤٨ عن أبي هريرة ألفاظ عديدة.

٣٥ - الإحياء / جـ٣ / ص ٨٨.

٣٦ - أصول الدعوة / د. عبدالكريم زيدان / ص ٩٣.

٣٧ - الإحياء / جـ٣ / ص ٨١.

٣٨ - فلسفة التربية الإسلامية / عمر الشيباني / ص ٢٢٧.

٣٩ - المرجع السابق / ص ٢٢٨.

٤٠ - المرجع السابق / نفس الصفحة.

٤١ - أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ / منقطع.

٤٢ - الإحياء / جـ٣ / ص ٨١، ٨٢.

٤٣ - الإحياء / جـ٣ / ص ٨٤.

٤٤ - مدارس التربية في الحضارة الإسلامية / حسان محمد حسان، نادية جمال الدين، ص،ص ٢٤٠ - ٢٤٢ نقلاً من كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني.

٤٥ - الإحياء / جـ٣.

٤٦ - الأخلاق في التصور الإسلامي.

٤٧ -

٤٨ -

٤٩ -

٥٠ - مقدمة في علم الأخلاق / ص ٢٢.

٥١ - الإسلام / جـ١ / سعيد حوى / ص ٧٦.

٥٢ - المرجع السابق / ص ٨٦ - ٩٧.

٥٣ - الإحياء / جـ٣ / ص ٨٥، ٨٦.

٥٤ - العقيدة والأخلاق / د. محمد بيصار / ص ٢٢٥.

٥٥ - دستور الأخلاق في القرآن / ص ١٦.

٥٦ - كلمات في الأخلاق / كمال محمد عيسى / ص ٧٢.

٥٧ - أخرجه أبو داود ٤ / ٧٦ ج ٤١٦٣ عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥ / ٣٤٥.

٥٨ - أخرجه مالك في الموطأ ٢ / ٩٤٩ ح ٦ عند يحيى بن سعيد عن أبي قتادة الأنصاري.

٥٩ - أخرجه مالك في الموطأ ٢ / ٩٤٩ ح ٧ وجاء موصولاً بمعناه عن جابر وغيره.

٦٠ - أخرجه البخاري / ١ / ٢١٤، ومسلم ١ / ٢٠ ح ٢٥٢.

٦١ - فلسفة التربية الإسلامية / د. عمر الشيباني / ط ٦ / ص ٢٢٧.

٦٢ - انظر الإحياء / للغزالي / جـ٣ / ص ٧٧ - ٨٨.

٦٣ - انظر : كلمات في الأخلاق الإسلامية / ص ٧٥ - ٧٧.

٦٤ - أخرجه أحمد في مسنده من حديث عبدالله بن عمرو ٢ / ١٧٧.

٦٥ - أخرجه مسلم (٢٥٩٣ / ٧٧) من حديث عائشة.

٦٦ - سبق ذكره / ص ٢٨.

٦٧ - أصول الفكر التربوي في الإسلام / د. عباس محجوب / ص ١٦٤.

٦٨ - أنظر : تأملات في فلسفة الأخلاق / منصور علي رجب / الأنجلو المصرية / ص ٨٨ - ٩٠.

الفصل الثاني
الأخلاق عند غير المسلمين

الأخلاق عند غير المسلمين

الدين نظام سلوكي، يقوم على معتقدات تمثل منطلقاً للعلاقات المثلى بين الناس وبين ما يعبدون، ويحتوي الدين في أغلب الأحوال على طقوس عبادية مقدسة، والدين موجود في كل حضارة رغم اختلافه من واحدة لأخرى عقيدة وتطبيقاً. ويخلق الدين كذلك نظاماً من السلطة تمكن الفرد بأن يميز بواسطته بين الصحيح من أعماله والخطأ منه. ومن خصائص الدين الإسلامي أنه لا يقوم على الجمود ولا يعيش مع الجهل. ولا يتسع للخرافات. وهو يمتاز بحضه على العلم، واحترام تقدير العقل، والنظر إلى الكائنات الطبيعية، وهو دين الدنيا والآخرة، وهو دين العبادة والحياة. ودين الجد والاجتهاد والعمل. والقرآن الكريم كتاب الله الخاتم قد رسم للناس قواعد الحياة العملية وكذا قواعد الفكر والنظر، وكما راسخ قواعد السلوك الإنساني «الأخلاق» فهو كتاب إنساني وعملي وأخلاقي.

والإسلام - كسائر رسالات السماء - يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، فهو يكرس جهوداً ضخمة للتغلغل في أعماقها وغرس تعاليمه في جوهرها حتى تستحيل جزءاً منها.

وما خلدت رسالات السماء وكونت حولها جماهير المؤمنين إلا لعنايتها بالنفس الانسانية فجعلت منها موضوعاً لها ومحوراً لنشاطها. فلم تكن تعاليمهم قشوراً ملصقة فتسقط في معترك الحياة، ولا ألواناً مفتعلة بهتت على مرّ الأيام. وإنما ارتبطت بطوايا النفس. وحاجاتها، كما عنيت رسالات السماء بالمجتمع وأوضاعه، والحكم وأنواعه، وقدمت أدوية لما يصيب هذه النواحي من علل.

ومع ذلك فالأديان لن تخرج عن طبيعتها في اعتبار النفس الصالحة هي البرنامج المفضل لكل إصلاح، والخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة.

فالنفس المختلة تثير الفوضى في أحكم النظم، والنفس الكريمة ترقع الفتوق في الأحوال المختلة، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير، وكان لكل مجتمع خصائص تميزه عن غيره. فكان للمجتمع الإسلامي عدة خصائص منها أنه مجتمع رباني، مجاهد، عالمي، لا عنصري ولا قومي ولا يعرف التعصب، مجتمع عادل يعيش فيه المسلمون وغير المسلمين. مجتمع يتسم بالأخلاق السامية. فهو رحمة كبرى للعالم أجمع.

بعكس المجتمعات والأديان الأخرى التي كان لها خصائص واهتمامات تغاير ما جاء به الإسلام. مما أدى ذلك إلى إتسام الأخلاق عندهم بطابع خاص يختلف عن الأخلاق الإسلامية. لأن الأخلاق - كما عرفنا - تتأثر بعاملين هامين: البيئة، والوراثة. وسوف نستعرض في تلك الصفحات أهم ما تمتاز وتتسم به الأخلاق الإسلامية، وماهو طابع الأخلاق عند غير المسلمين. وسوف نتتبع هنا تاريخ الأخلاق في الجاهلية الحديثة، لنرى إن كانت سائرة في طريق الصعود أم في طريقة الإنحدار، وكم بقي في العالم الغربي من أخلاق. وما نود التأكيد عليه أنه مامن عالم ولا مجتمع إلا وبه الخير والشر، فقد وجدت بعض الفضائل في بعض هذه المجتمعات مثل: الشجاعة، بذل النفس في سبيل ما تؤمن به من هدف. والكرم، والأنفة وإباء الضيم. لكن ذلك لم يعفها من نتائج ضلالها. فقد كانت هذه الفضائل - لبعدها عن منهج الله - تنحرف عن طريقها القويم. فالشجاعة مثلاً وبذل النفس تضيع في جاهلية الأخذ بالثأر وقتل النفس بغير حق مثل الذي

يفعله اليهود الآن كل يوم من قتل آلاف المسلمين بغير الحق. وجميع الفضائل عندهم فضائل نفعية لا تستند إلى قيم. وسوف يتضح ذلك بشيء من التفصيل على النحو التالي:

١ - الأخلاق في العصر اليوناني:

يعتبر اليونان القدماء أول من أقام علم الأخلاق على أساس فلسفي. ويعدُّ سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م) بوجه خاص أول من أسس هذا العلم. فقد كان - كما يقول «إميل بوتر» وهو أول من أدرك هذه الفكرة وأكد على أن لعلم الأخلاق أساساً يتميز عن التقاليد الدينية. وأنه مع هذا لا يرتكز على العادات أو الغرائز. لقد رأي أن من الممكن أن نجد في الملاحظة اليقظة المنظمة للطبيعة الإنسانية العناصر اللازمة لمذهب أخلاقي لا تعوزه الدقة ولا السمو ولا السلطان. كل المسألة كانت إذن معرفة طبيعة الإنسان الحقة وبهذا كان مذهب سقراط أول محاولة للأخلاق الحرة العقلية[١].

ولذا اتجه سقراط - في محاولة جادة - إلى بناء معاملات الناس على أساس علمي وكان يذهب إلى أن الأخلاق والمعاملات لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مبنية على العلم وكان يرى أن الفضيلة هي العلم، وأن الرذيلة هي الجهل.

وإذا قلنا إن اليونان هم أول من أسس علم الأخلاق فليس معنى ذلك أن الأمم الأخرى قبل اليونان لم تكن لها فلسفة وأخلاق. فالعقل والأخلاقيات من لوازم البشر في كل العصور. فقد عرفوا الأخلاق العملية التي مرنوا عليها في مجتمعاتهم واقتضاها نظام حياتهم. ولكن لم يدونوا مذاهب نظرية أو يضعوا قواعد فلسفية. ذلك لأنهم كانوا في شغل عن ذلك بالكفاح في سبيل العيش

والصـراع مع الطبـيعـة القـاسيـة. فصـاغوا آراءهـم في قـصص وأسـاطيـر وحكم وأمثـال، ولم تكن مناهج علميـة فلم يكن هناك بحث في اللذة والفـضـيلة ولا الفـضـائل وأنواعـهـا. فكان اليـونان بـذلك هم أول من عنى بالبـحث والتـحليل والتـعـريف لعلم الأخـلاق. فـوضع سـقـراط اللبـنة الأولى. وحـارب اتجـاهات السوفسطائين الذين كـانوا يرون أن الحقائق ليست ثابتة، وان الإنسـان هو مقياس كل شيء فـالحق هو ما يراه الشـخص حقاً، والبـاطل مايراه الشـخص باطلاً، وهذه الآراء تعني في مجال الأخـلاق أن القيم والمبادئ الخلقية نسبـية تتغير بتغير الزمان والمكان، وتخـتلف باختـلاف الـظروف والأحوال والطبـيعـة البشرية ليـست إلا مـجمـوعـة من الأهواء والشـهـوات وعـلى ذلك فـغاية الإنسـان هي اللذة. فقـام سقـراط بالرد عليـهم، ونادى بجعل السعادة غاية للأفعال الإنسـانيـة. وتتحقق عنده سيطرة العقل على الشهوات[٢]. لكنه نسى أن الإنسان ليس عقلاً فقط!

والتربـية اليونـانية تمتاز عن سواها بكونهـا أعطت الفرد حـرية الفكر والابتكار فكانوا يرحبون بكل جديد يرونه مناسباً.

ففي الفلسفة اليـونانية يتـمثل هدف الأخلاق في السعادة «أخلاق سعادة»[٣] ثم جاء أفلاطون (ت ٣٤٧ ق.م) تلميذ سقـراط فـأخذ عنه فكرته في السعادة وجعل الفضـيلة العليا هي فضـيلة العدالة التي تتمثل في التوافق والانسجام بين قـوى النفس عن طريق العقل، فلا تبـغى إحـداها على الأخـرى[٤]. فلقـد كـتب أفلاطون مثلاً في التـربيـة، وكـتب عن المرأة، ودعـا إلى مسـاواة المرأة بالرجل في جـميع الحقـوق. وانتـقل هذا التـصـور إلى أوروبا حتى أصبـح محـوراً من محـاور

التصور العلماني. الذي أفسد المرأة والرجل على السواء، وأفسد النظم الاقتصادية والسياسية والتربوية.

واعتبر أفلاطون أن في النفس البشرية قوى تختلف في منزلتها ولكنها تقابل الطبقات الإجتماعية في الأمة. واعتبر العقل مكانه الدماغ وفضيلته الحكمة وهي تمثل طبقة المفكرين والفلاسفة.

واعتبر الغضب مكانه القلب وميزته الشجاعة وتمثل طبقة الجند. واعتبر الشهوة مركزها البطن وميزتها العفة. وهي تقابل طبقة العمال المنتجين، وعلى ضوء هذا يوزع أفلاطون الناس على أعمالهم بيد أنه قضى على نظام الأسر، ورأى قتل المرضى والضعفاء![٥].

ثم جاء أرسطو (تت ٣٢٢ ق.م) تلميذ أفلاطون. وقال إن الفضيلة وسط بين رذيلتين. فالكرم مثلاً فضيلة وسط بين الإسراف والتقتير وكلاهما رذيلة. والشجاعة وسط بين الجبن والتهور وكلاهما رذيلة وهكذا [٦] وهل هناك وسط بين الصدق والكذب!

ثم قامت مدرستان فلسفيتان هما: الرواقية والأبيقورية فاهتمتا بالأخلاق وتنافستا على دعوة الناس إلى السعادة فالأولى ترى السعادة في الفرار من اللذة. بينما ترى الأخرى السعادة في الحصول على اللذة والإكثار منها[٧]. وأبيقور اليوناني (٣٤٣ - ٢٧٠ ق.م) عرفت حياته بالحياة المنعمة اللاأخلاقية، وهذه اللذة عند أبيقور تعني الخير في ذاته وهي مذهب غير أخلاقي ترى اللذة هي الخير الوحيد في الوجود وهي إما حسية أوعقلية. وقد أخذ عنه هذا المذهب فلاسفة أوروبا في الوقت الحاضر ولكن بإسم المنفعة المادية الحسية لأنهم من

الفلاسفة الماديين الحسيين أمثال جيرمي بنتام (١٧٤٨ - ١٨٢٣م) في القرن التاسع الميلادي. وجون سيتوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٢) م. وجون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م)[٨]. إلى غير هؤلاء. لكننا نتساءل هل استقام السلوك الانساني بهذه الأخلاق وهل سعدت البشرية في ظلها؟!

٢ - الأخلاق عند العرب في العصر الجاهلي:

لم تتهيأ للعرب في الجاهلية الفرصة لابتكار فلسفة أو نقلها عن غيرهم، ولكنهم تركوا لنا كثيراً من الشعر والنثر والخطب والحكم والوصايا تتضمن نصائح خُلقية تتسم بالتفكير الفطري. فجاءت تلك الآراء ممثلة لفلسفة عملية استمدها حكماء العرب من بيئتهم وتقاليدهم الخلقية والدينية. وكانت الفضيلة العليا لديهم تتمثل في «المروءة» التي تقوم على الشجاعة والكرم. ومن المروءة الحلم والصبر والعفو عند المقدرة وقرى الضيف وإغاثة الملهوف، ونصرة الجار، وحماية الضعيف...الخ.

وقد عرفوا الصلة الوثيقة بين العلم والفضيلة ولكن هذه الآراء لم يكن يعقبها تأمل أو تعمق في التفكير بل كانت - كما يقول الشهر ستاني - من فلتات الطبع وخطرات الفكر[٩].

فلم تكن هناك حرية دينية أو سياسية أو فكرية وخاصة للمرأة لأنها - كما نعرف - كانت مشؤومة ليس لها حق الحياة، وقد وجد هناك تفرقة كبيرة بين المرأة والرجل فلن يكن لها أي حق في الحياة عند بعض القبائل منهم. وكانت العنصرية والتعصب من أبرز سمات حياتهم، كما كان الأبناء يأخذون عن آبائهم الأخلاق الفاضلة، فكان الطفل يتعلم من أسرته أساليب الدفاع عن نفسه وعن عشيرته.

٣ - الأخلاق في العصور الوسطى :

وفي نهاية القرن الثالث الميلادي انتشرت المسيحية في البلاد الأوروبية ودعت إلى أن الله هو مصدر الأخلاق، وأن الباعث على عمل الخير والفضيلة إنما هو حب الله والإيمان به. وكان للرواقية تأثير كبير على أتباعها، فغلب عليهم الميل إلى الزهد والرهبانية(١٠). وفي القرون الوسطى في أوروبا كان الاتجاه السائد هو أن الوحي السماوي قد جاء بالتعاليم الأخلاقية كاملة، ولهذا فلم يكن للبحث العقلي في الأخلاق مجال في تلك القرون.

فقد كانت التعاليم الرواقية غير مشبعة للحاجة الروحية، لتطرفها وبعدها عن الآفاق السماوية، فجاءت بعثة عيسى - عليه السلام - في وقت بعد فيه بنو إسرائيل عن الروحية، وشعر الناس بنوع من الفراغ الديني والجدب الخلقي والروحي. واتجهت التربية قرونا عديدة عند المسيحية إلى وجهة دينية أخلاقية، وفقدت صلتها بالثقافة الجمالية والعقلية، وذلك لإيمانها بأن الفضيلة تتحقق عن طريق الوجدان ولعبت الكنيسة دوراً كبيراً في ذلك، وكثيراً ما تتهم الكنيسة في العصور القديمة والوسطى بعداوة العلم وبالتحزب ضد الثقافة. ولذلك كان هناك خمولاً ثقافياً وفقداناً للحرية ولم يكن التعليم معنيا بالأخلاق وإنما اقتصر على حياة الرهبنة ومايقدمه الرهبان(١١).

٤ - الأخلاق في العصر الحديث :

سبق أن عرفنا أن طابع الأخلاق في العصور الوسطى كان دينياً صرفاً. وظل الحال على ذلك في أوروبا حتى جاء عصر النهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وتم التخلص من سلطان الكنيسة ورجالها. وانفصل علم

الأخلاق عن الدين، واتجه الفلاسفة مرة ثانية إلى العقل يبحثون عن غاية الإنسان من أعماله، ويستوحون منه مبادئ السلوك.

ولما جاء القرن السابع عشر ظهرت طوائف أخرى من الفلاسفة اتجهوا بعنايتهم إلى استرداد سلطان العقل وتحرير الفلسفة والأخلاق من سلطان الدين. وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا منهم من راح يؤسس الأخلاق على أساس ميتافيزيقي، ومنهم من جعل الواجب مبدأ الخلقية، ومنهم من حاول تقييم الأخلاق على أساس من علم النفس أو علم الحياة أو علم الإجتماع(١٢).

وقد زاد الإقبال في هذا العصر على الفكر اليوناني والروماني من فلسفة وفنون وأدب وزاد الاهتمام بالدنيا والسعي وراء ملذاتها. وإزداد الاهتمام بحرية الفرد. وانفصلت الأخلاق عن العقيدة. وأصبحت الفلسفة مصدراً للأخلاق في أوروبا هو «الفلسفة» وبدأ الانحراف في الأخلاق منذ ذلك الحين فأصبحوا يتحدثوا عن النظرية الأخلاقية في - عالم المثل - ثم لا يتوقعوا تطبيقها في واقع الأرض. وسارت أوروبا في منهجها وسياستها على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة. فلقد استبدلت الدين بالفلسفة وصاغت منها قواعد أخلاقها. فكان من نتيجة ذلك أن أصبح «الربا» المحرم في المسيحية واليهودية - من قبل - أساسا قامت عليه الرأسمالية من أول لحظة بكل ما تحويه من ظلم واغتصاب للجهد واستغلال بشع لجهد العمال مقابل أجر يقل أحياناً عن الكفاف.

- وكان استغلال الأطفال في طفولتهم الغضة نظير دريهمات.

- وكان استغلال المرأة لمضاربة الرجل وتفتيت عزيمته حين أخذ يطالب برفع الأجور. ثم استغلالها لإرضاء شهوات الرجل الهابطة. وقهرها على بيع عرضها مقابل لقمة خبز!!

- أصبحت الملاهي والملذات وأدوات الزينة والتقاليع من وسائل الربح في أوروبا.

وأصبحت الفضائل منفعية فالصدق مثلاً لا يكون ابتغاء مرضاة الله بل لكونه يؤدي إلى كسب مزيد من الربح!! أو لمنفعة شخصية أخرى. تبعاً للأنظمة الوضعية في الشرق والغرب وكان نتيجة ذلك أن تفشي الفساد والشذوذ الجنسي للحريات المطلقة. من ذلك قضية «بروفيمو» وتعريض أسرار الدولة العسكرية للخطر لقاء لذة فاجرة يقضيها وزير الحرب مع إحدى العاهرات، وكذلك صرح خروشوف سنة ١٩٦٢ أن شباب روسيا مائع منحل غارق في الشهوات، وفي أمريكا عصابات من كبار المثقفين من المحامين والأطباء ورجال القانون مهمتهم تيسير مهمة الزنا لأغراض قانونية.

- وفي الولايات الكاثوليكية لا يباح الطلاق إلا في جريمة الزنا من أحد الزوجين في بعض الولايات.

- وفي أمريكا كذلك عصابات لبيع الفتيات على مذبح الشهوات لأثرياء أوروبا.

- وفيها عصابات للنهب والسلب والاغتصاب(١٣).

- وكانت المرأة أسرع وسيلة وأسهلها لهذا الإضمحلال والفساد وإنحراف الأخلاق عن طريق دعوتها إلى مساواة الرجل في كل شيء في العمل وغيره واثارة التساؤل عن :

لماذا تعدد الزوجات، الطلاق، العصمة، لماذا الحجاب وغير ذلك من تلك الإدعاءات التي كانت الصهيونية العالمية من وراء الترويج لها فراحت تدبر

وسائل التخريب والغزو الفكري للإسلام عن طريق المرأة. وإطلاق دعوى تحريرها إلى غير ذلك مما جلبته الصهيونية وأتباعها من: ماسونية وروتاري... فراح ماركس وفرويد ودركايم وغيرهم يهونون من أمر الأخلاق ويستخفون بها، ويدعون المرأة أن تخرج وتمارس نشاطها الجنسي حتى تكون سهلة قريبة من متناول الرجل، ثم راحت السينما وهي صناعة يهودية تزيد كل أنواع التحلل الجنسي والاستمتاع إباحة مطلقة، وبيوت الأزياء، وبيوت الزينة. والتقليد الأعمى - الموضة - وكل شيء يشغل المرأة عن الدين.

وتحررت المرأة، من قيود الدين والأخلاق والتقاليد. وأصبحت الإباحية ديانة معترف بها. وتقوم الدولة بترخيص مزاولتها في كل مكان. عن طريق الكتب والقصص والصحافة والسينما والتليفزيون. فهذه الوسائل تعرض الصور العارية والخليعة. مما جعل هذا العصر أشد العصور كلها اشتغالاً بأمور الجنس. وأصبح الزواج سجناً لا حركة فيه ولا مثيرات حتى أصبح هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات، والبحث عن الأزواج الهاربين!!.

وكان من نتيجة ذلك: أن حدثت هزيمة نفسية في مجال السلوك تجلت واضحة في مظهر «التقليد» الذي فيه إلغاء للشخصية وطمس للهوية. وظهر ذلك في تقليد الملابس. فالرجل يلبس ملابس المرأة والعكس وأصبحنا نرى الرجل يطيل شعر الرأس ويلبس الذهب إلى غير ذلك من مظاهر كان تأثيرها أشد خطراً على المرأة المسلمة التي قلدت المرأة الغربية فيها. يشهد بذلك واقع بعض المسلمات في السفور، وانتهاك حرمة الحجاب. وعدم الحياء، ارتداء القصير والضيق والشفاف والظهور في عرى واختلاط ماجن على شواطئ البحار والأماكن العامة والإسراف في استعمال الزينة. والمساحيق (الأحمر والأخضر

والأصفر) والباروكة[١٤]. إلى غير ذلك مما هو غير خفي على الناس جميعاً ونراه يومياً في الشوارع.

كذلك قلدوهم في إستحلال ما حرم الله من آنية الذهب والفضة وتقليدهم في الكلام والمشي والطعام والشراب.

ومن مظاهر الهزيمة النفسية في السلوك أيضاً. التفكك الأسري. وضعف التواصل الأسري نتيجة ضعف القيم الإنسانية. والتخاذل عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كذلك تفضيل الصناعات الغربية على غيرها. والحرص على تعليم الأطفال في المدارس الأجنبية، فهذه شهادة من كاتبة إنجليزية تقول فيها:

إنني أتمنى أن تسير بلادنا على نظام الإسلام ولأن يشتغل بناتنا خوادم في البيوت أو كا الخوادم خير لهن وأخف بلاء من اشتغالهن في المصانع والمعامل التي تذهب بجمال أنوثتهن. ألاليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفة والطهر ولا تمس الأعراض والرقيق يتنعمان بأسعد عيش ويعاملان كما يعامل أولاد البيت ولا تمس الأعراض بسوء فما بالنا لا نسعى لجعل البنت تعمل ما يوافق فطرتها الطبيعية من شئون البيت والزوج والولد وتدع أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها[١٥].

(٥) الأخلاق في الإسلام:

ميز الإسلام بين التقوى والرهبنة: فالتقوى مشاركة في العمل مع يقظة ضمير تحول دون الرذيلة. أما الرهبنة فهي اعتزال كامل للمجتمع مع التشديد على النفس ومنعها من نعم الدنيا.

كما أن الانطلاق وراء الشهوات لا يعد من الحرية، وإنما هو العبودية الذليلة للغرائز. فالحرية هي القدرة على امتلاك الإرادة وضبط النفس دون اعتداء على حرية الآخرين. والأخلاق في الإسلام ليست مثالية دون تطبيق. بل واقعية عملية. تستمد قيمها من صميم واقع الإنسان بحسبانه أحد أفراد المجتمع. وهي تظهر في مستويين: فردي وجماعي.

كذلك تؤكد الأخلاق الإسلامية على حرية واختيار الإنسان، وتحمل المسئولية والأخلاق في الإسلام ترتبط بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً. وتمثل القاسم المشترك لكل روافده من سياسة واقتصاد وأدب وعلم وتربية.

وقد جمع الإسلام بين السلوك والخلق في مختلف المجالات، وبين الدنيا والآخرة وجعل مقياس ذلك كله التقوى والعمل معاً. التقوى بمعنى الاتقاء والترك للإنحراف في السلوك والاعتقاد. والعمل بمعنى الحركة والإضافة.

فالقرآن ينظر للفرد في ضوء مصلحة المجتمع. والإسلام لم ينه الإنسان عن الدنيا والتمتع بطيبات الأرض. بل أمره بذلك في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (المائدة: ٨٧). وقد نظر المسلمون للأخلاق على أنها منهاج عملي، بينما نظرت فلسفات ونظريات أخرى للأخلاق على أنها جانب نظري من النشاط العقلي خاضع للجدل والنقاش. والأخلاق الإسلامية كان لها طابع التعايش مع كل عصر دون الخروج على إطار الإسلام فهي تسمو وتتسامى فوق كل مذهب فلسفي(١٦).

وبناء على ذلك كله نستنتج مايلي:

١ - الأخلاق معرفة وعمل.

٢ - تُبني الأخلاق على الاعتدال والتوسط اتباعاً لقول الرسول - ﷺ - «خير الأمور أوساطها»(١٧).

٣ - المبادئ الأخلاقية في الإسلام لم تكن مجرد قواعد نظرية، بل مبادئ إيجابية حكمية نبتت من الواقع والتحليل العلمي للسلوك الإنساني، ولم تكن تستهدف تكوين عادة الخير فقط. بل تكوين وازع داخلي، تتحقق معه الرقابة المطلقة لله سبحانه وتعالى في سائر الأقوال والأفعال.

٤ - أساس الأخلاق في الإسلام الالتزام واتقاء الشبهات.

٥ - حسن الخلق زينة الإنسان وأسباب سعادته، وسوء الخلق من أسباب تفكك المجتمع وسقوط الحضارات. وهي تقوم على أساس اعتقادي يربط بين الإيمان والسلوك الخلقي.

٦ - إن الخلافة بين الأخلاق عند المسلمين وغيرهم إنما هو منبع الأخلاق. فالمنبع عندنا هو الإسلام فهو المصدر والمقياس. أما المذاهب الأخرى فترى غير ذلك فمنهم من يرى أنه عرف المجتمع، ومنهم من يرى الضمير الإنساني، ومنهم من يرى أنه السعادة واللذة والمنفعة، ومنهم من يرى أنه العقل.

هوامش الفصل الثاني

١ – مقدمة في علم الأخلاق / د. محمد زقزوق / ص ٤٩ .

٢ – دروس في تاريخ الفلسفة / د. إبراهيم مدكور / المطبعة الأميرية / ص «ن».

٣ – قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام / د. أنور الجندي / ص ١١٥ .

٤ – مقدمة في علم الأخلاق / ص ٥٠ .

٥ – التربية في الإسلام / د. عدنان النحوي / ص ٧٥ .

٦ – مقدمة في علم الأخلاق / ص ٥٠ .

٧ – المرجع السابق / ص ٥١ .

٨ – الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة / ص ٨٠٠، ٨٠١ .

٩ – مقدمة في علم الأخلاق / ص ٥١، ٥٢ .

١٠ – الأخلاق / لأحمد أمين / ص ١٣٣ .

١١ – أنظر : مدخل إلى تاريخ التربية الإسلامية / ص ٧٩ – ٩١، وجاهلية القرن العشرين / محمد قطب / ص ١٥٠ – ١٥٢ .

١٢ – راجع بالتفصيل / مقدمة في علم الأخلاق / ص ٥٦ – ٥٩ .

١٣ – راجع بالتفصيل : جاهلية القرن العشرين / ص ١٥٠ – ١٥٦، في ظلال القرآن / جـ ٢ / ص ٦٣٦ .

١٤ – راجع : المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية / د. عبدالله بن حمد الشبانة / دار طيبة / ١٤٠٩هـ – ١٩٧٩م / ص ١٠٧ – ١١١ .

١٥ – المرجع السابق / ص ١٣١ .

١٦ – قضايا العصر ومشكلات الفكر / د. أنور الجندي / ص ١١٣ – ١١٦ .

١٧ – أخرجه البيهقي في الشعب مرسلاً .

الفصل الثالث
أساليب التربية الخلقية

الأساليب التي تساعد في التربية على الأخلاق الفاضلة

لقد أقام الإسلام نظاماً فريداً لتربية أبنائه على أساس أن تكوينهم يحفظ عليهم كيانهم ويحقق التوازن الكامل بين طاقاتهم بحيث لا تدمر فيهم طاقة من الطاقات بل تعمل كلها في انسجام تام بلاطغيان ولاضعف .وهذا النظام جعل الغربيين ينظرون إليه بعين الإعجاب حتى إن رجلاً كالدكتور «سيزل» عميد كلية الحقوق بجامعة فينا يقول في مؤتمر عالمي عام ١٩٢٧ : «ان البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها فإنه على أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا ان يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين اسعد ما نكون لو صلنا إليه بعد ألفى عام»(١).

ولا نجد غرابة في هذا فان الله الذى خلق الإنسان هو الذى أتى بهذا التشريع الذى شمل الحياة كما شمل التربية بجميع خصائصها فهو بمن خلق أعلم بحاجاتهم وأدرى ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك ١٤) . ومن هنا جاء هذا المنهج شاملاً لكل الخصائص التي تتفق مع حاجات الإنسان في أطوار حياته، ويمكن للباحث أن يهتدي إلى بعض ما ذكرته العناية الآلهية في القرآن الكريم والسنة المطهرة من أساليب مؤثرة ربت النفوس وارتقت بالهمم وفتحت قلوب البشر للهدى الإلهى والحضارة الإسلامية ومكنت لهم في الأرض، في سعتها وفي عمق الزمان مالم يتح لغيرهم من أمم الأرض أن يتمكنوا فيه.

وقد حققت اساليب ووسائل التربية الإسلامية نتائج تربوية عظيمة انعكست آثارها على الرعيل الأول من المسلمين وبدت آثارها في تفوق وتقدم المجتمع المسلم في عصور الحضارة الإسلامية الزاهرة وقد سلك مربى البشرية الأول محمد بن عبدالله ﷺ طرقا مختلفة في تربية أصحابه وقد إختلفت هذه الأساليب والطرق مراعاة للفروق الفردية بين البشر.

ولعل أهم هذه الأساليب وأبرزها :

١ - أسلوب الحوار القرآني والنبوى.

٢ - التربية بالقصص القرآني والنبوي.

٣ - التربية بالأمثال القرآنية والنبوية.

٤ - التربية بالقدوة.

٥ - التربية بالممارسة والعمل.

٦ - التربية بالعبرة وبالموعظة.

٧ - التربية بالترغيب والترهيب.

وسنشرح في طيات هذه الصفحات - إن شاء الله - بعض هذه الأساليب لنرى كيف ربي الاسلام العواطف الربانية والعقل الانساني على التفكير المنطقى السليم والسلوك البشري الرباني السديد المستقيم فسعدت بذلك المجتمعات وسعدت الدنيا بنور الاسلام.

الأسلوب الأول: الوعظ والنصيحة

أسلوب معروف في التربية الاسلامية يتطرق إلى النفس من مداخلها الحقيقية ويجعل الناصح شخصاً حريصًا على المصلحة فيكون كلامة مقبولا ويكون هذا الأسلوب مفيداً إذا كان المنصوح يثق في الناصح وإذا كانت النصيحة صادرة من القلب لأن مايصدر عن القلب لابد وأن يصل إلى القلب.

المعني اللغوي للموعظة:

(أ) في القاموس المحيط «وعظ يعظه وعظاً وعظه وموعظه ذكره مايُلَيّن قلبه من الثواب والعقاب فاتعظ.

(ب) المعني القرآنى كما ورد في تفسير المنار.

في تفسير قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق : آية ٢).

الوعظ : النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذى يرق له القلب ويبعث على العمل أى ذلك الذى تقدم عن الاحكام والحدود المقرونة بالحكم والترغيب والترهيب يوعظ به أهل الإيمان بالله والجزاء على الأعمال في الآخرة فإن هؤلاء هم الذين يتقبلونه ويتعظون به فتخشع له قلوبهم ويتحرون العمل به قبولاً لتأديب ربهم وطلباً للانتفاع به في الدنيا ورجاء في مثوبته ورضوانه في الأخرى[1].

إذن النصيحة هي من أهم معاني الوعظ وأشكاله فالنصح هو بيان الحق والمصلحة بقصد تجنب الضرر، ودليل النصح الصادق ألا يتوخى الناصح

مصلحة شخصية دنيويه مادية لنفسه، ولذلك وجب على المربى أن يتنزه أثناء أداء واجبه التربوى عن كل رياء أو مصلحة خاصة لئلا يشوب إخلاصه أي شائبة فيفقد هيبته وتأثيره في نفوس الآخرين.

وقد بين الله تعالى ذلك عند ذكر الحوار الذى جرى بين الرسل وأقوامهم. فقال مخاطباً رسوله محمد ﷺ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ (الفرقان / ٥٧)

وقال على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَـالَمِينَ ﴾ (الشـعـراء: ١٠٩-١٢٧-١٤٥-١٦٤-١٨٠).

فقد تكررت هذه العبارة لتؤكد إخلاص الرسل وتنزههم عن المصالح الخاصة المادية الشخصية في دعوتهم إلى الله تعالى(٣).

وهذا المعنى يتأكد من المعنى اللغوي لكلمة «نصح» ففي القاموس: ورجل ناصح الجيب؛ لاغش فيه والناصح: العسل الخالص لأن الناصح يخلص للمنصوح له عن الغش(٤). كذلك يشترط في النصيحة الأمانة قال تعالى. ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (الأعراف: ٦٨).

فدلت هذه الأيه على أن من شروط النصح الأمانة.

وفي اسلوب النصح والإرشاد مجال كبير للتوجيه إلى مافيه الخير والارشاد، ويمكن للمعلم أن يختار الوقت المناسب والموقف المناسب حتى

---

(١) خلق المسلم / للشيخ محمد الغزالي / ص ٤ / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م / دار الكتب الإسلامي.
(٢) أخرجه أحمد والحكام والبيهقي من حديث أبي هريرة ورواه مالك.
(٣) رواه مسلم.

تتحقق الفائدة المرجوة والقرآن الكريم مليء بالقصص في الموعظة والعبرة لأصحاب العقول وكذلك كثر ذكره في السنة المطهرة، فالإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة، لما لها من تأثير ساحر على القلوب.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (يوسف : ١١١).

وقال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء : ٥٨).

وقال رسول الله ﷺ : «الدين النصيحه قلنا : لمن يارسول الله؟ «قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمه المسلمين وعامتهم» (٥). وقال عبدالله بن مسعود: «إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام مخافة السآمة علينا»(٦).

والنفس الإنسانية على استعداد لتلقى مايلقى إليها من كلام بالتكرار والمداومة(٧)، والموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة من طريق الوجدان وتهزه هزاً، وتثير كوامنه لحظة من الوقت. كالسائل الذي تقلب رواسبه فتملأ كيانه ولكنها إذا تركت تترسب من جديد.

والموعظة ضرورة لازمة ففي النفس دوافع فطرية في حاجة دائمة للتوجيه والتهذيبالذي يرد الانسان إلى الصواب ويعوده مكارم الأخلاق يستوى في ذلك الصغير والكبير.

قال تعالى: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى... ﴾ وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣ - ١٩) وقال: ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ (الإسراء: ٢٣) ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ﴾ (الإسراء: ٣٣). ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾.. (النحل / ١٢٥).

كل هذه الآيات وغيرها تربي بالموعظة وإلا فالقرآن كله موعظة وعبرة للمتقين![٧] ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران / ١٣٨).

وهكذا يتضح لنا دور الموعظة والنصح كأسلوب من أساليب التربية الإسلامية تصلح في جميع ميادين التربية الروحية والجسمية والعقلية والاجتماعية والوجدانية فالموعظة الحسنة لابد أن تقترن بالحكمة.

والوعظ يعتمد من الناحية النفسية والتربوية على أمور أهمها:

١ - إيقاظ عواطف ربانية كانت قد ربيت في نفوس الناشين بطريق الحوار أو العمل والعبادة والممارسة أو غير ذلك، كعاطفة الخضوع لله تعالى والخوف من عذابه أو الرغبة في جنته وكذلك يربي الوعظ هذه العواطف وينميها.

٢ - الاعتماد على التفكير الرباني السليم وهو التصور السليم للحياة الدنيا والآخرة.

٣ - الاعتماد على الجماعة المؤمنة فالمجتمع الصالح يوجد جواً يكون فيه الوعظ أشد تأثيرا وأبلغ في النفوس.

٤ - من أهم آثار أسلوب الموعظة تزكية النفس وتطهيرها وهو من الأهداف الكبرى للتربية الإسلامية وبتحقيقه يسمو المجتمع ويبتعد عن المنكرات والفحشاء[٨].

ويكفي في النصيحة أنها من سنن المرسلين قال تعالى إخباراً عن نوح ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود/ ٣٤). وقال تعالى عن شعيب: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف/ ٩٣). وروى عن تميم الداري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة ثلاثاً» قلنا: لمن يارسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٩] والنصح قد يكون لله بوصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهراً وباطناً، وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد في رد العصاة إلى طاعته قولاً وفعلاً والنصيحة لكتابه إقامته في التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم مافيه والذب عنه من تأويل المحدثين وطعن الطاعنين والنصيحة للرسول إحياء سنته وإحياء طريقته في بث الدعوى وتأليف الكلمة والتخلق بالأخلاق الطاهرة.

والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ماجهلوا، والنصيحة لعامة المسلمين بتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وتفريج كربهم.

قالوا في الحكم (ودك من نصحك، وقلاك[١٠] من مشى في هواك) أنشد الأصمعي:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا ... تردد علـــــى ناصح نصحاً ولا تلم

إن النصائح لا تخفي منا هلهـا ... على الرجال ذوي الألباب والفهم[١١]

الأسلوب الثاني: من أساليب التربية على الخلق الفاضل (تعود الخلق الفاضل)

العادة تؤدي دوراً خطيراً في حياة الإنسان ذلك لأنها توفر قسطاً كبيراً من الجهد البشري بتحويله إلى عمل سهل يؤديه الإنسان في ميادين جديدة من العمل والانتاج والإبداع، ولولا هذه الموهبة التي أودعها الله في فطرة البشر لقضوا حياتهم يتعلمون المشي أو الكلام أو الحساب ولكنها على عظم مهمتها في حياة الإنسان تنقلب إلى عنصر معوق معطل إذا فقدت كل ما فيها من وعي وأصبحت أداءً آلياً لا تلتفت إليه النفس ولا ينفعل به القلب.

والإسلام يستخدم العادة أسلوباً من أساليب التربية فيحول الخير كله إلى عادة تقوم بها النفس بغير جهد وبغير مقاومة. وطريقة العادة تكون بتكرار عمل معين مرات كافية لجعله جزءاً من حياة الإنسان كالصلاة والصيام.

ومن هنا فقد طلب الإسلام أن ترتبط هذه الأعمال بالنية حتى تحتسب في ميزان حسناته.

ففي الحديث الذى رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ مانوى)[١٢].

وقد عُني الإسلام بإزالة العادات السيئة التي وجدها سائدة في البيئة العربية واتخذ لذلك إحدى وسيلتين: إما القطع الحاسم الفاصل وإما التدرج البطئ حسب نوع العادة التي يعالجها وطريقة تمكنها في النفس(١٣). فكل عادة جاهلية شركية تتصل بأصل التصور والعقيدة فقد قطعهاالإسلام قطعاً حاسماً من أول لحظة – فهي كالأورام الخبيثة في الجسم ينبغي أن تستأصل من جذورها وإلا فلا حياة – لأنه لا يمكن أن يستقيم إيمان وشرك، هذا بالنسبة للعقائد. أما العادات الإجتماعية مثل عادة وأد البنات أو شرب الخمر والزنا والربا والرق فقد لجأ فيها إلى التدرج البطئ مع استمرار الوعظ والتوجيه واستحياء القلوب فهي لم تكن عادات فردية وجدانية بقدر ما كانت عملية سارية في المجتمع، وهي كذلك ليست من العادات التي تستطيع كل نفس أن تحسم موقفها منها في لحظة فلا يعاودها الحنين إليها ولا تعود!

لذا لجأ الإسلام في علاجها إلى التدرج فكانت أول إشارة لتحريم الخمر ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ٦٧). ففضل بين السكر والرزق الحسن ثم كانت الإشارة الثانية ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٩). فهي مرحلة الإقناع الوجداني والعقلي لتتحول عن عادتها.

ثم كانت الإشارة الثالثة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ (النساء: ٤٣). وهي النهي عنها أثناء الصلاة ثم كانت الخطوة

الحاسمة الأخيرة وهي التحريم القاطع ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (المائدة: ٩٠). إلى غير ذلك من أمثال تلك العادات.

أما العادات النفسية من: كذب ونميمة وغيبة وكبر فكان وسيلة مواجهتها هي التوجيه المحي للقلب والاتصال بالله في السر والعلن.

هذا بالنسبة لمنهج الإسلام في القضاء على سيء العادات أما منهجيته في غرس وتثبيت ودعم العادات الصالحة المرغوب فيها فإنه وضع عدة أساليب منها:

١ - أسلوب الهزة الوجدانية الموجبة والقادرة على تغيير البناء العقدي والتصور عند الإنسان، ويستخدم هذا الأسلوب من أجل تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، ويعتمد هذا الأسلوب على تغيير البيئة حيث ينتقل المسلم من بيئته الكافرة لينتمي إلى جماعة الإيمان فيدخل معهم في علاقات إيمانية قوامها العدل والمساواة والتآخي ويمارس معهم شعائر الإسلام كأن يستمع إلى القرآن الكريم. ويصبح ذلك عادة مشتبكة بزمان ومكان وأشخاص، ومن هنا تنشأ العلاقات وتصبح النماذج السلوكية الجديدة ظاهرة فردية وجماعية معاً ويستقيم المجتمع وتحيى فيه التصورات والفضائل الإسلامية وبذلك تصبح العادة عملاً فردياً وارتباطاً جماعياً في آن واحد فيتحقق الدوام والاستمرار وللمجتمع نظاماً اجتماعياً قوي الأسس متين البنيان.

فالإسلام يلجأ أولاً إلى إثارة الوجدان ويغرس الرغبة في العمل ثم يحول الرغبة إلى عمل وسلوك يدعمه الإيمان وتدعمه الجماعة المسلمة.

كالصلاة مثلاً هي رغبة في الاتصال بالله والدعاء إليه وطلب المعونة منه فيحول هذه الرغبة إلى عمل محدد ذي مراسم وحدود ثم ينظمها في أوقات محددة ثم يدعو إلى الجماعة ويرغب فيها.

وكالزكاة تهدف إلى تحرر النفس من الشح والعطف على المحتاج والتعاون مع الجماعة فتتحول الرغبة إلى عمل ظاهر ومحدد ذي نسبة محددة في المال وأوقات معينة في الأداء ثم يحول العمل الفردي إلى نظام تقوم عليه الدولة والمجتمع(١٤)

٢ - الإقناع والاقتناع العقلي : يتضمن الإسلام جانب الغيب وهو مسألة إيمانية خالصة تحتاج إلى التسليم والاذعان وجانب عقلي يحاول الإسلام إقناع المؤمنين به فالإسلام يخاطب الناس على قدر عقولهم ثم يستثير الرغبة ويعمل على ترجمتها إلى مواقف سلوكية كما في الأمثلة السابقة(١٥).

الأسلوب الثالث

(صداقة الأخيار)

كثيراً ما نرى من أهل الصلاح من يزل زلات، استدرجته إليها بطانة فاسدة زينت له الباطل وحجبت الحق عن عينيه، ومسؤولية أحدنا تبدأ من حسن الاختيار للأصحاب، فالصاحب دليل على صاحبه، إذ أن النفوس المتماثلة تتجاذب فيما بينها كما بين لنا رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(١٦) لأن أي صحبة لا تخلو من تأثير وتأثر. وللصداقات الخاصة أثر عميق في توجيه النفس والعقل ولها نتائج هامة فيما يصيب الجماعة كلها من تقدم أو تأخر ومن قلق أو اطمئنان(١٧).

والأخوة في الإسلام سبب التآلف، والتآلف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع وركن شديد بها يُمنع الضيم وتُنال الرغائب وقد من الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء وردها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران/ ١٠٣) ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة إذ جعلهم إخواناً على سرر متقابلين، وقد سن رسول الله الإخاء وندب إليه وآخى بين الصحابة أجمعين. وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم.

وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: «الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين» وأنشد الشاعر:

وما المـــــرء إلا بإخوانـــه كمـــا يقبض الكف بالمعصم

ولا خير في الكف مقطوعه ولا خير في الســـاعد الأجـــذم

والأخوة في الله ليست عاطفة فحسب - إنها عاطفة صادقة وفكر إيماني، وانها مسؤولية، وهذه الأخوة تربط أجيال المؤمنين في التاريخ البشري كله ليكونوا أمة مسلمة واحدة، تعبد رباً واحداً هو الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى كلها، وتدين بدين واحد هو الإسلام.

وقد عنى الإسلام بهذه الصلات التي تربط بين الأشخاص، وهذه الصلات إن بدأت ونمت نبيلة خالصة تقبلها الله وباركها وإن كانت رخيصة مهينة ردها في وجوه أصحابها: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧). والإسلام دين تجمع وألفة وتعارف واختلاط وتعاون بين الناس. وقد كان سلف الأمة يحرصون على الأُنس بالجليس الصاحب التقي الذي يعين على الخير، ويزيل وحشة الغربة فقد ورد عن علقمة أنه حين قدم الشام غريباً دعا: «اللهم يسر لي جليساً صالحاً».

والرسول ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه» وأولى الناس بالتقريب هم أهل العلم والصلاح ولذلك كانت بطانة عمر بن الخطاب من القراء وقد توج البخاري أحد أبواب صحيحه بقوله «وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم...»

وكم رأينا في أيامنا هذه أناساً خاصموا وفجروا وقاطعوا وهجروا بتحريض من بطانة سوء استهوتها الشياطين لأنها وضعتهم على شفا جرف هار فأنهار به في نار جهنم يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً﴾ (الفرقان ٢٧-٢٩).

فالطبع يسرق من الطبع وقد شوهد أن عدوي السيئات أشد سريانا وأقوى فتكا من عدوى الحسنات فقد تنتقل عدوى التدخين من المدخن إلى البريء منها ويندر أن يقع العكس[١٨].

وتحصيناً لهذا وقطعاً لرأس السوء وحماية للخلق الحسن والعادات الكريمة أمر الرسول بالتحذيرمن الجليس السوء فقال رسول الله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبه، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً نتنة»[١٩].

فإن كانت تلك حال الجليس الذي قد تجتمع معه في جلسة عابرة ساعة من ليل أو نهار، فكيف بك مع صاحب العمر الذي يخالطك في السراء والضراء؟

فصداقة الأذكياء الأتقياء قد ترتفع بك إلى القمة، أما صداقة السفهاء فهي منزلق سريع إلى الحضيض، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ١٩-٢٠).

ومن ثمرات البطانة الصالحة: المشورة بالرشد والسداد للرأي وانتشار الرحمة في مجلسهم.

وعن رسـول الله قـال: «لا تصـاحب إلا مـؤمناً، ولا يأكل طعـامك إلا تقي»[٢٠].

لذا يجب على المربين تربية أبنائهم على حسن اختيار الأصدقاء على أساس التقوى والإيمان والرفقة المؤمنة والأتراب والأنداد الذين ربوا تربية صالحة مع اشغال وقتهم بما يرضي الله ويزكي نفوسهم، وتحذيرهم مما يدنس نفوسهم أو يضيع أوقاتهم في غير طاعة أو فائدة علمية أو كسب حلال دنيوي عملاً[٢١]. بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ النساء: ١١٣.

وقال رسول الله ﷺ: «إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوهم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء فقالوا يارسول الله: صفهم لنا فقال المتحابون في الله والمتجالسون في الله والمتزاورون في الله»[٢٢].

والميزان الضابط لمفهوم الأخوة والذي لا يتم الإيمان إلا به ما بينه رسول الله بقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢٣].

ويكفي ان الله جعل من الذين يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله «.. رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»[٢٤].

وشرط هذه الأخوة أن تكون لله وفي الله بحيث تخلو من شوائب الدنيا وعلاقتها المادية ويكون الباعث عليها الإيمان بالله لا غير.

أما عن آدابها فينبغي أن يكون الصاحب :

١ - عاقلاً لأنه لا خير في أخوة الأحمق.

٢ - حسن الخلق / إذ سيء الخلق وإن كان عاقلاً فقد تغلبه شهوة أو يتحكم فيه غضب فيسيء إلى صاحبه.

٣ - تقياً : لأن الفاسق لا يُؤمَنّ جانبه ولا يبالي بأخوة أو غيرها.

٤ - ملازماً للكتاب والسنة بعيداً عن الخرافة والبدعة إذ المبتدع قد ينال صديقه من شؤم بدعته(٢٥).

ومن حقوق الأخوة في الله مايلي:

١ - المواساة بالمال إذا احتاج إليه.

٢ - أن يكون كل منهما عوناً لصاحبه يقضي حاجته ويقدمه على نفسه ويصغى إليه إذا حدث ويوسع له في المجلس.

٣ - أن يكف عنه لسانه إلا بخير فلا يذكر عيبه لافي غيبته أو حضوره ولا يستكشف أسراره ولا يجاريه في الكلام.

٤ - أن يعطيه من لسانه ما يحبه فيدعوه بأحب أسمائه إليه ويذكره بالخير في الغيبة والحضور ولا يسترسل في نصحه فيقلقه ولا ينصحه أمام الناس فيفضحه كما قال الإمام الشافعي «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه».

٥ - أن يعفو عن زلاته ويتغاضى عن هفواته ويستر عيوبه.

٦ – أن يفي له في الأخوة فيثبت عليها ويديم عهدها.

فقد أكرم رسول ﷺ عجوزاً دخلت عليه فقيل له في ذلك فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن كرم العهد من الدين».

٧ – أن لا يكلفه ما يشق عليه وأن لا يحمله مالايرتاح معه ولا يستغله بشيء من مال وجاه لأنها لله وفي الله قال بعض الصالحين: من سقطت كُلْفَتُه، دامت أُلفَتُه، ومن خفت مؤونته دامت مودته».

٨ – أن يدعو له ولأولاده فيدعو له حياً أو ميتاً حاضراً أو غائباً.(٢٦) قال رسول الله: «إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك».

ولذلك كانت رغبة الإسلام في التجمع وتكثير سواد المسلمين ورؤيتهم حشوداً متضاعفة، لافرادى منقطعين كما نفر من العزلة والانفراد فكل اعتزال من الأمة يفوت جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يضعف من جانب الدفاع عن الإسلام أمام خصومه ولذلك كانت مشروعية صلاة الجماعة والترغيب فيهما.

ثم إن العزلة والاختلاط لا يمكن أن يكونا وصفين دائمين للإنسان. فَلْيُقَسِّم المسلم وقته بين الخلوة النافعة والاختلاط الحسن، ليخرج من الحالتين بما يصلح شأنه كله(٢٧).

وإذا نشأت الصداقة لله فلن تبقى إلا بطاعته، ولن تزكو إلا ببعد الصديقين معاً عن الفساد والنفاق. ومن أجل ذلك كان صحابة رسول الله

يعين كل واحد منهم الآخر على فعل الخير وعلى الحق فعن أنس بن مالك: كان عبدالله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله، قال تعال: نؤمن بربنا ساعة فقال ذات يوم لرجل: فغضب الرجل فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟ فقال النبي ﷺ: يرحم الله ابن رواحة. إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة»[٢٨].

ولذلك سن الإسلام سناً في الصداقة بها تزداد الصلات وتقوى الروابط ويكون لها كبير الأثر وقت الأزمات منها: زيارته، وعيادته في مرضه، وقبول هديته يقول الرسول الكريم ﷺ: «تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر» - أي وسواسه»[٢٩].

وكان رسول الله يقبل الهدية ويثيب عليها.

يقول الشاعر:

زر من تحب وإن شَطَّت بك الدار وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعد من زيارته إن المحب لمن يهواه زوار

كذلك أباح الإسلام أن يأكل الشخص من طعام صديقه وقال عبدالله بن طاهر: المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والإخوان كنوز وافرة.

وقال لبيد:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه* والمرء يصلحه الجليس الصالح.

وقالوا: (شر الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة).

وأخيراً فإن أخلاق الخلائق مختلفة ومعيار الأخوة هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف: ٦٧.

وقول الرسول الكريم: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف»(٢٩).

وكان عمر - رضي الله عنه - يقول: [رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي] وكان يسأل سلمان وحذيفة عن عيوبه. ويقول الغزالي في الإحياء: (وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء)(٣٠).

الأسلوب الرابع

الثواب والعقاب

لا تغفل التربية الإسلامية أي أسلوب توجه به الإنسان وترشده فإذا لم يفد أسلوب القدوة والموعظة لجأت إلى أسلوب الثواب والعقاب أو الترغيب والترهيب فالله سبحانه وتعالى خلق الجنة والنار ووعد بالجنه وأوعد بالنار فالنفس البشرية تحتاج إلى هذين النوعين فكلا الأمرين مقرر في الإسلام في ميدان الحياة وميدان التربية ولكن لكل منهما ضوابط وقواعد. فالثواب في التربية الإسلامية يهدف أولاً إلى تنمية واعية للحوافز الإيمانية حتى تتجدد النية والنهج والهدف فإذا لم تهدف إلى ذلك يتحول الثواب إلى فتنة تدفع الإنسان إلى الدنيا وزينتها وتبعده شيئاً فشيئاً عن إخلاص النية لله تعالى.

والعقاب يهدف إلى إلزام الإنسان بحدود حتى لايتجاوزها وإلى تذكيره بالحق الذي خالفه حتى يعود فيلتزمه أو الذنب الذي وقع فيه حتى يقلع عنه(٣١).

فالترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة مؤكدة خيرة خالصة من الشوائب مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيء ابتغاء مرضاة الله وذلك رحمة من الله بعباده.

والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو تهديد يقصد به تخويف العباد وهذا عدل من الله(٣٢).

والقرآن الكريم استخدم أسلوب الترغيب لبيان النتائج الطيبة للإيمان بالله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا

تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فصلت ٣٠-٣٢. وآيات الترغيب في الجنة كثيرة جداً في القرآن الكريم، وفي مقابل الترغيب هناك الترهيب لبيان مصير المشركين والمنحرفين يقول المولى عزوجل ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٠)، كذلك في مجال السنة نجد أحاديث كثيرة في الترغيب والترهيب فعن أسامه بن زيد قال قال رسول الله ﷺ «من صُنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد ابلغ في الثناء»[١] وقوله ﷺ «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[٣٣] وقال أيضا «من قرأ القرآن وعمل به أُلبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيت من بيوت الدنيا لو كانت فيه فما ظنكم بالذي عمل به»[٣٤].

ومن أساليب الترهيب قول الرسول الكريم «ثلاثة أناخصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعط أجره».

وهكذا يكون أسلوب الترغيب والترهيب وسيلة من وسائل التربيه الإسلامية

في تحقيق أهدافها التي ينبغي على المربين أن يهتدوا بها في استعمال أسلوب الثواب والعقاب مع مراعاة أمور منها :

أولاً : مايرتبط بالثواب فينبغي :

١ - عدم الإكثار من الاثابة لأن الكثرة تفقدها قيمتها وتضعف رغبة المتعلم فيها والأفضل هو إشعار المتعلمين بأن النجاح هو أحسن مكافأة لهم.

٢ - الإثابة لحمل المتعلمين على مضاعفة الجهود بدون إثارة التنافس المثير للغيرة الغيرة والحسد والأنانية.

٣ - التحرى في استعمالها وذلك بإثابة من يستحقها فقط ثم عدم التمييز بين الأطفال في نوعية الثواب وخاصة قيمته إذا كان سببه واحدا فالثواب إما بالثناء، وإما بالجوائز المادية، وإما بالهدايا، أو يجعل له القيادة، وبالتشجيع على الالتزام بالأخلاق.

ثانياً : وفيما يتعلق بالعقوبة فيجب مراعاة الأمور التالية :

(أ) عدم الاكثار منها خشية أن تصبح مألوفة فيقل تأثيرها.

(ب) أن ترتبط بوقوع أو ارتكاب محظور وأن تكون ملائمة لهذا الخطأ وبذا يكتسب العقاب صبغة الإصلاح لا مظهر التشفي والانتقام.

(جـ) استعمالها بهدوء ونزاهة حتى لاتخدش الكرامة ولاتؤلم النفس ولاتولد الحقد والكراهية.

(د) مراعاة حساسية المعاقب[٣٥].

ولكن العقوبه ليست ضرورة لكل شخص فقد يستغنى شخص بالقدوة والموعظة فلا يحتاج إلى عقوبة.

ومن الناس من يحتاج إلى الشدة مرة ومرات، وليست العقوبة أول خاطر

يخطر على قلب المربى ولا أقرب سبيل، فالموعظة هي المقدمة وينبغى الدعوة إلى عمل الخير والصبر الطويل على إنحراف النفوس لعلها تستجب يقول تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت : ٣٤) ويقول ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل : ١٢٥)، ويقول ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ (المزمل : ١٠) والقرآن ملىء باللمسات الدقيقة اللطيفة الموحية المؤثرة التي تهز الوجدان وتؤثر فيه بكل وسائل التأثير.

وليس من الحكمة ان نتجاهل أن هناك أناساً لايصلح معهم ذلك كله فهناك من الأطفال من يحتاجون شيء من الحزم في تربيتهم وكذلك الكبار ومن الحزم استخدام العقوبة أو التهديد في بعض الأحيان.

والإسلام يتبع جميع وسائل التربية فلا يترك منفذاً في النفس لايصل إليه فهو يستخدم القدوة والموعظة والترغيب والثواب.. كذلك يستخدم التخويف والترهيب بجميع درجاته من أول التهديد إلى التنفيذ.

فمرة يهدد بعدم رضاء الله، ومرة بالغضب صراحة، ومرة بحرب الله ورسوله، ومرة بعقاب الآخرة. ومرة بالعقاب في الدنيا ثم يوقع العقاب. بدرجات متفاوته فمن الناس من يكفيه الإشارة فقط حتى يردع ومنهم من لا يردعه إلا الغضب ومنهم من لابد من تقريب العصا منه ومنهم من تردعه العقوبة البدنية[٣٦].

والقرآن يعالج كل هذا بحكمة وعدل حتى لايكون هناك ظلماً لأحد لتحميله مالايطاق أو فوق طاقته البشرية ولقطع الحجج على الناس يوم القيامه.

وهكذا تميزت التربية الإسلامية بتنوع اساليبها في تهذيب وتأديب النشء المسلم.

وقد راعت في العقوبة التدرج من الرفق إلى الشدة وفي ذلك يقول الغزالي في التمييز بين طرق التأديب تبعا لاختلاف أحوال الأطفال، «فهذا طفل يتميز بالحياء والحساسيه، فيستعان على تأديبه بحيائه ثم مهما ظهر من الصبي من خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم ويجازى ويمدح بين الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه فإن عاد فينبغي أن يعاقب سراً»(٣٧).

فعلى الانسان أن يجمع بين الخوف والرجاء والخوف من عقاب الله وعظمته فلا يتملكه الغرور، والرجاء في رحمة الله فلا ييأس من عفوه. وللعقوبة درجات:

١ - التأنيب والتوبيخ.

٢ - والمقاطعة والهجر. وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب مع الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فأمر المسلمين بمقاطعتهم لمدة خمسين يوماً، وبعد مضي أربعين شدد العقوبة بأن أمرهم باعتزال زوجاتهم حتى كمل الخمسون.

٣ - بالضرب: وهي عقوبة يقرها الإسلام، ولكن بعد أن تخفق الوسائل الأخرى في العلاج.

٤ - التهديد والوعيد بدرجاته المتفاوتة كما بنيا ذلك سابقاً(٣٨).

الأسلوب الخامس
الأســـوة الحســـنة

للقدوة دور مهم في التربية ولاسيما في مرحلة الطفولة فالطفل يقتدي بمن يراهم ويقلدهم في أعمالهم وسلوكهم ولذلك عنيت التربية الإسلاميه بالقدوه الحسنة وقد قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده :

«ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك فإن عيونهم معقودة بك فالحسن عندهم ما فعلت ، والسيئ عندهم ماتركت» . وينصح «ابن المقفع» من نَصَّب نفسه للناس إماماً في الدين أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والرأي واللفظ فيكون تعليمه للناس بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه قال تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ٤٤) .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلـــــــم غيـره ... هـــــلا لنفسه كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى الأسقام وذى الضنى ... كيمـــــا يصح به وأنت سقيم

ونراك تصلح بالرشـد عقولنا ... أبـــداً وأنت من الرشـاد عديم

لاتنه عن خلق وتأتـي مثلـــه ... عارٌ عليـــــك إذا فعلـت عظيم

أبدأ بنفسك فانهها عـن غيها ... فإذا انتهت عنـه فأنت حكيم[٣٩]

ولقد جعل الله للمؤمنين أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه في ثباتهم على التوحيد ورفضهم أي تنازل مع قومهم المشركين مهما كان الخطر الذي يهددهم.

ثم جعل الله تعالى محمدا ﷺ الأسوة الحسنة والمربى الأول والمثل الذي يجب الاحتذاء به للمؤمنين في جميع أوجه نشاطهم ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (الممتحنة، ٤).

وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (الأحزاب: ٢١).

وسيظل رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة للمؤمنين أبد الدهر وهو القدوة المثلى فلاتدانيه قدوة أخرى من الناس في واقعهم، أما الصالحون من المؤمنين فهم نماذج عُليا يبعثهم الله ليجددوا للناس أمور دينهم. ومن أبرز خصائصهم أن يردوا كل أمورهم إلى منهاج الله رداً أميناً ويظل الرسول هو الأسوة الحسنه لهم ولمن يتعهدونهم ويعلمونهم فيكونون بذلك والنموذج الصالح أمام الناس.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسوله الله ﷺ قال : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دنيها»(٤٠).

والإسلام يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية فيقيم تربيته الدائمة على هذا الأساس ولابد للطفل من قدوة في أسرته ووالديه لكى يتشرب منذ طفولته المبادئ الاسلاميه، وينهج على نهجها الرفيع. ولابد للناس من قدوة في مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده الطاهرة لكى يحملوا الأمانة لمن يربونهم من الأجيال. ومن هنا وجب على المربين في أى موقع كان أن يتخذوا من منهج رسول الله التربوى قدوة ليتمكنوا من إعداد الإنسان الصالح.

فقد جاء في الحكم: «فعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل لرجل»

كما قيل : «لايستقيم الظل والعود أعوج»، والقدوة الصحيحة تتحقق حينما يلتزم صاحبها منهج الله ورسوله في: بيئته ووظيفته وتعامله مع الناس. ذلك كله في حدود وسعه ومسؤوليته التي سيحاسب عليها(٤١) .

وكل مسلم مكلف ومسؤول. والتربية تعرف المسلم بمسؤولياته وتنير له سبل الوفاءبها .

ومنهاج الله هو الحق المطلق الذى أنزل ليُمارس في الواقع على مدى الزمان وجاء الرسول ليبين للناس هذا المنهج وجاءت ممارسة الصحابه له تحت إشراف الرسول ﷺ وهونبيهم ثم انطلقوا يمارسون منهاج الله وفق ما تعلموه في مدرسه النبوة. ومحمد ﷺ هو الصورة الكاملة الحية الخالدة للمنهج الإسلامي فقد كان خُلقه القرآن .

وكان مربيا وهاديا بسلوكه الشخصى قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به(٤٢).

كان الرسول ﷺ كما يحكى عنه على بن أبي طالب رضي الله عنه .

أشجع الناس وأقربهم إلى القتال ! يتزوج ويستمتع بطيبات الأرض ! يسلم على الناس بجميع يده وفي حرارة وقوة. يرضى من كل نفسه فيعرف أصحابه في وجهه السرور. ويغضب فيبدو الغضب على وجهه ويدر عرق في جبهته. هي القوة الحيوية الفياضة في كل اتجاه.

ورجل سياسة يُشيد أمة من الفتات المتناثر فإذا هى بناء ضخم لايطاوله شيء في التاريخ ويمنح هذا البناء من وقته وفكره وروحه وجهده ومشاعره ما يشغل حياة كاملة.

ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش ويحارب ويتصر، فهو قائد متخصص كل همه القتال.

وأب وزوج ورب أسرة كبيرة يرعاها في كل كبيرة وصغيرة ويساعدهم رغم أعبائه.

وصديق وقريب وصاحب يعود مريضهم ويعين ضعيفهم ويرفق ويعطف على فقيرهم، ورغم ذلك كله فهو عابد متحنث لربه منقطع للعبادة لا تشغله الأرض ومن فيها.

وفوق كل هذا فهو قائم على أعظم دعوة شهدتها الأرض(٤٣).

كل هذه النعوت مجموعة في شخصه ﷺ مجموعة في تناسق وتوافق كل منها يأخذ نصيبه كاملاً فهو قدوة المسلمين على وجه الأرض كل واحد ينهل من خصاله مايطيق، ويقتبس من نوره وخَلقه كل بقدر مايتحمل كيانه فلابد وأن يكون الدعاة والهداة على هذا المستوى من الأسوة وإلا حرموا الاستخلاف في الأرض وإمامة الناس، فالله سبحانه وتعالى لما أراد إنزال المنهج الأخلاقي في القرآن يُسمع ويقرأ، إراد أيضاً أن يكون سلوك الرسول ﷺ تطبيقاً لهذا المنهج يحس ويشاهد فإذا إراد النهي عن فعل شيء فعل ذلك أولاً ليقتدى به الصحابة من بعده كما فعل يوم الحديبية لما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قالها ثلاث مرات فلم يقم أحد فأشارت عليه أم سلمة - رضي الله عنها - أن يبادر هو بفعل ذلك اولاً ففعل وفعلوا بعده مثله. فدل ذلك على أن الفعل وتأثيره أبلغ على النفس من القول.

وعلى صاحب الأسوة الحسنة أن يترك كثيراً من المباحات احتياطاً لأمر دينه وبعداً عن الشبهات وبعداً عن مواطن الظن لئلا ينفر الناس من الاقتداء به.

لذلك كان سيدنا على - رضى الله عنه - يحتاط لنفسه ولأعين الناس فيلبس المرقع من الثياب، فلما اعترض عليه البعض أجاب : «مالكم وللباس. هو أبعد عن الكبر، وأجدر أن يقتدي به المسلم».

كذلك يجب الحذر من سوء التصرف الذي قد يفتن به العامة ولذلك لما رأى ابن عباس أخاه عبيد الله صائماً عرفة في الحج حذره بقوله : «إنكم أئمة يقتدى بكم».

وهذا هو إمامنا وأسوتنا محمد ﷺ يحج في حياته مرة واحدة وكان بإمكانه الحج أكثر من ذلك ولكن فعل ذلك خشيه الاقتداء به حتى لا يصير مفروضاً على المسلمين ذلك.

كذلك من متطلبات إمامة المتقين : لايستأثر بدينه على إخوانه فلاتنال الرفعة في الدين إلا بمجاهدة النفس ولذلك حين جاءت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تشكو من تشقق يديها من الطحن بالرحى وتطلب خادماً فلم تُعْطَهْ. وكان عليه السلام يجوع كثيراً حتى يضع الحجارة على بطنه لتخفف من جوعه وينام على الحصير حتى يؤثر على جنبه فكان الرسول ﷺ المثل الأعلى في الكمال البشري، مثلاً أعلى في تحري الصدق، وأداء الأمانة، في الرحمة، مثلاً أعلى للزوج والوالد ولرب الأسرة، في حلمه وعطفه في تواضعه، في عمله. فهو ﷺ قدوة المسلم في كل ما يأتي وفي كل ما يدع. وكذلك كان حال الصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

كذلك ينبغي ألا يكون صاحب الأسوة إمعة مسيئاً مع المسيئين ومحسناً مع المحسنين.

كما يجب عليه أن يهون في نظره كل شيء في سبيل ثباته في مواقف الابتلاء. وحياة الرسول والصحابة غنية بهذه الصور من البذل والتضحية والتى لايتسع المقام الذكرها.

والقدوة أعظم وسائل التربية وأوقعها وأقربها للنجاح.

فالطفل الذي يرى والده يكذب لايمكن أن يتعلم الصدق ! والولد الذي يرى أمه مستهتره لايمكن أن يتعلم الفضيلة.. وهكذا.

ولهذا كله ينبغي أن تكون سيرة الرسول جزءاً دائماً من منهج التربية سواء في المنزل أو المدرسة أو الكتاب أو الصحيفه أو المذياع لتكون القدوة دائمة وحية وشاخصة في المشاعر وفي الأفكار(٤٤) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢- ٣).

وأخيراً فالإسلام لم يترك وسيلة من وسائل التربية أو أسلوباً من أساليبها لتهذيب النفس وتعويدها على الخلق الفاضل إلا واستخدمها:

إنه يربى بالقدوة، وبالموعظه، وبالثواب والعقاب وبالعادة أو بمصاحبة الأخيار وغيرها. هذا هو أسلوب التربية في الإسلام والذي استخدمه في تربية أبنائه من المسلمين ليقوموا بأداء واجب الرسالة وتحقيق الخلافة في الأرض على الوجه الأكمل.

هوامش الفصل الثالث

١ - أضـواء على التـربيـة في الإسـلام / علي القـاضي / ط١ / دار الأنصـار / ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م / ص ٥٥ .

٢ - انظر : تفسير المنار / للسيد رشيد رضا / ط١ / ١٣٤٦هـ/ص ٤٠٣ .

٣ - أصـول التـربيـة الإسـلاميـة وأسـاليـبهـا / عـبـدالرحـمن النحلاوي / ط١ / دار الفكر بدمشق / ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م / ص ٢٥٢ .

٤ - بصـائر ذوي التمـيز في لطائف الكتـاب العـزيز / للفـيـروز أبادي / المكتبـة العلميـة / بيروت / ص٥ .

٥ - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان / باب بيان أن الدين النصيحة ١ / ٧٤ رقم ٥٥ .

٦ - أخـرجـه مـسلم في كـتـاب صـفـات المنافقين وأحكامـهم، باب الإقـتـصـاد من الموعظة ٤ / ٢١٧٢ رقم ٢٨٢١ .

٧ - منهج التربية الإسلامية / محمد قطب / دار الشروق / ص ٢٢٩ - ٢٣٢ .

٨ - أصول التربية الإسلامية وأساليبها / ص ٢٥٦ .

٩ - أخرجه مسلم برقم (٥٥) وصححه ابن حبان (٤٥٧٥) وأحمد ١ / ٣٥١ والبزار (٦١) والطبراني (١١١٩٨) .

١٠ - قلاك يعني جفاك وهجرك .

١١ - المستطرف في كل فن مستظرف / لشهاب الدين الأبشهي / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / ص ٨٦، ٨٧ .

١٢ - أخـرجـه البـخاري / ١، ٥٤ (٢٥٢٩) و (٣٨٩٨) . ومـسلم (١٩٠٧) وأحـمـد ١ / ٢٥ و ٤٣ ، والترمذي وابن ماجه والنسائي ومالك .

١٣ - منهج التربية الإسلامية / محمد قطب / ص ٢٤٦ .

١٤ - منهج التربية الإسلامية / ص ٢٤٦ - ٢٥١ .

١٥ - أضواء على التربية في الإسلام / علي القاضي / ص ٧٠.

١٦ - أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، والحاكم من حديث أبي هريرة.

١٧ - خلق المسلم / ص ١٨٩.

١٨ - المرجع السابق / ص ١٩٤.

١٩ - زخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين ٤ / ٢٠٢٦ رقم ٢٦٢٧.

٢٠ - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب: من يؤمن أن يجالس ٥ / ١٦٧. رقم (٤٨٣٢) والترمذي في كتاب الزهد باب صحبة المومن رقم ٢٣٩٧.

٢١ - أصول التربية الإسلامية / للنحلاوي/ ص ١٦٦، ١٦٧.

٢٢ - رواه أبو داود.

٢٣ - زخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) وأحمد ٣ / ١٧٦، والترمذي (١٥، ٥٢) وابن ماجه ٦٦.

٢٤ - مختصر صحيح مسلم للألباني ص ١٤٧ رقم ٥٣٧.

٢٥ - منهاج المسلم / ص ١١٠.

٢٦ - المرجع السابق / ص ١١٢.

٢٧ - خلق المسلم / ص ١٩٢.

٢٨ - رواه أحمد والطبراني.

٢٩ - رواه البخاري.

٣٠ - الإحياء / جـ٣/ ص ١٠٧.

٣١ - التربية في الإسلام/ د. عدنان علي الرضا/ ص ٢٢٥.

٣٢ - أصول التربية الإسلامية/ د. النحلاوي/ ص ٢٥٦.

٣٣ - رواه أبو هريرة في صحيح مسلم.

٣٤ – أخرجه البخاري في صحيحه.

٣٥ – التربية الإسلامية / د. سليمان الحقيل / ط٢ / ص ٦٠ / ٦١.

٣٦ – منهج التربية الإسلامية / محمد قطب / ص ٢٣٤ – ٢٣٦.

٣٧ – الإحياء / جـ٣ / ص ١٠٥، ١٠٦.

٣٨ – أخلاقنا / د. محمد جوهري / ص ٧١ – ٧٤.

٣٩ – التربية الإسلامية أصولها وتطورها / محمد منير مرسي / ص ١٠٣.

٤٠ – رواه أبو داود والحاكم والبيهقي.

٤١ – التربية في الإسلام / د. عدنان / ص ٢٦٤.

٤٢ – منهج التربية الإسلامية / محمد قطب / ص ٢٢٢.

٤٣ – المرجع السابق / ص ٢٢٥.

٤٤ – منهج التربية الإسلامية / محمد قطب / ص ٢٢٩.

الفصل الرابع

خصائص الأخلاق الإسلامية

أولاً : خصائص الأخلاق الإسلامية

عند مقارنة الأخلاق الإسلامية بأي أخلاق أخرى قديمة أو حديثة نجد أنها في الإسلام قد انفردت بعدة خصائص ومميزات تميزها عن غيرها من حيث المفهوم والمصادر والأهداف والمحتويات والأساليب..

ولقد أقام الإسلام نظاماً فريداً لتربية أبنائه على أساس تكوينهم بحفظ كيانهم عليهم، وتحقيق التوازن الكامل بين طاقاتهم، بل تعمل كلها في انسجام تام بلاطغيان ولاضعف.

هذا النظام هو الذى جعل الغربيين ينظرون إليه بعين الإعجاب ولا نجد غرابة في هذا، فان الله الذي خلق الإنسان هو الذى أتى بهذا التشريع الذي شمل حياة الإنسان كما شمل التربية بجميع خصائصها وفروعها فهو بمن خلق أعلم وبحاجاتهم أدرى ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ «الملك: ١٤» ومن هنا جاء هذا المنهج شاملاً لكل الخصائص التى تتفق مع حاجات الانسان في أطوار حياته.

ومن خلال تلك الخصائص يتضح لنا مدى تفرد الإسلام في الأهداف والوسائل.

ويمكن تصنيف النظم الأخرى غير الإسلامية إلي فريقين :

فريق يصل الناس بخالقهم ليتركوا الأرض ومتاع الأرض وكفاح الأرض فهم يعيشون في أبراج عاجية لا علاقة لها بواقع الحياة في رهبنة جوفاء تتسم بالانعزالية عن الكون وتعطل مسيرة الاستخلاف.

وفريق يصل الناس بالأرض فيستمتعون بها ويكافحون من أجلها ويتركون عبادة الله فيعيشون للمادة والملذات تاركين عبادة الله ومعرضين عن منهج رسول الله ﷺ.

والإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بالله ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته، فيسير بجسمه على الأرض، وهو متجه بروحه إلى السماء في توازن وتكامل فلا رهبنة ولا إغراق في ماديات. وتلك هي الوسطية التي جعلت أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس.

فالرد إلى الخالق هو محور العقيدة الإسلامية كلها، فحين يؤوب الإنسان إلى الخالق يهتدي بهديه ويسير على نهجه ومن ثم تصلح النفوس وتستقيم الحياة نفوسهم وتصلح حياتهم.

وحين يرجع الانسان إلى خالقه تهون أمامه فيعتز بدينه ويعمل ليوم يرجع فيه إلى الله لا تلهيه الزخارف ولا يخيفه بطش الظالمين فمن الله المنشأ وإليه المصير. كل قوى الأرض.

وهناك الكثير من الخصائص والمميزات التى تميز المنهج الإسلامي الأخلاقي عن غيره ونجدها متمشيه مع روح الإسلام وروح التربية فيه وتستلزمها مبادئه وتعاليمه وسوف نستعرض لبعض هذه الخصائص بشيء من التفصيل.

الخاصية الأولى : شمول الأخلاق

من خصائص نظام الأخلاق في الإسلام الشمولية ونعنى بها أن دائرة الأخلاق الإسلاميه واسعة جداً فهي تشمل جميع أفعال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره سواء أكان غيره فرداً أو جماعة أو دولة.

هذا الشمول الذي يجعل فيه منهجاً كاملاً يشمل جميع مظاهر النشاط الحيوى للفرد والمجتمع وجميع علاقات الانسان وكافة جوانب حياته، وجميع جوانب ارتباطاته بالحياة والأحياء.

ومجال الأخلاق في الإسلام كما يقول الأستاذ «مقداد يالجن» : «هو هذا الكون كله وهو علاقة الإنسان بالكائنات الحية في هذا الكون، وهذه العلاقة المرسومة من قبل الإسلام في ضوء فلسفة عقيدته هي بشمولها هذا ميدان الأخلاق الإسلامية. ومن ثم يدخل في نطاق الأخلاق الأسلاميه علاقه الانسان بالله وتسمى العبادات وعلاقة الإنسان بالإنسان وهي الشريعه. وبالكائنات الروحية وبالحيوانات والموجودات ويدخل هذا في قسم الآداب العامة، لأن الإسلام يأمر بالآداب مع الله ومع الناس ومع الحيوانات ومع الملائكة)(٢).

والإسلام رسم هذا الطريق القويم للانسان في كل مجال من جوانب حياته فقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الانعام : ١٦٢.

لقد هداه الله في فكره وسلوكه ومعاملاته وعواطفه فمن المعلوم أن الإنسان بالإضافه إلى أنه مطالب في الإسلام بالاعتقاد الصحيح والسلوك والتعامل القويم فهو كذلك مطالب بالتحكم في شعوره وعواطفه، فالمسلم مطالب بأن يتجنب الكذب والغضب والحسد والنميمة والرياء والعجب والنفاق وما إلى ذلك.

فـالإسـلام يشـمل العـقـيـدة والعـبـادات والقـوانين والنظم والآداب للسلوك والأخلاق .

وكيف لايكون كذلك وهو من عند العليم الخبير العدْل والأخلاق الإسلامية تستمد شموليتها من شمولية الدين الإسلامي ومبادئه ، فهي بذلك تعنى بالجانب الروحي والعقلي والجسمي والخلقي والاجتماعي والجمالي وهي عندما تتعهد هذه الجوانب بالتربية ، فإنها تستهدف في الوقت نفسه تكاملها ، حركة نموها وتناسقها بحيث يصبح الانسان الذي تعده متكاملاً في شخصية ذات نظرة شمولية للأمور في الحياة وما بعد الحياة(٣) .

فهي تربية للجسم والنفس والعقل معاً . تربية للجسم لأن الإسلام أمرنا بالحفاظ على الجسم وحمايته من الخطر والهلاك ولذلك كان عقوبة من يقتل نفسه الحرمان من دخول الجنة قال ﷺ «كان فيمن قبلكم رجل به جرح وجزع فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات . . فقال الله بادرني عبدى بنفسه فحرمت عليه الجنة» .

وقال تعالى ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ (الإسراء : ٣٦) .

والأخلاق الإسلامية أيضاً تمثل تربية للعقل ، والقرآن الكريم مليىء بالآيات الدالة على ضرورة إعمال العقل والتفكر لأنه أساس المسؤوليه ، والجزاء والحساب .

وهي تربية للنفس لأنه دين يخاطب النفس والعاطفة لدى الانسان والاحتكام إلى الضمير فقد أمرنا الإسلام بأن نربي نفوسنا على الفضيلة والخير وحب الناس والتعفف والعزة . . . الخ بل لقد اعتبر ديننا جهاد النفس هو الجهاد الأكبر .

كما أن الأخلاق الإسلامية تحرر الإنسان من الخوف والضعف فالمسلم القوى خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف، تحرره الأخلاق من كل ما يدنسه ويعيبه وتقيمه على الطهارة والنظافة وعدم الخضوع للشهوات(٤) .

الأخلاق الإسلامية تنظم حياة الانسان مع نفسه، أهله، جيرانه، أصدقائه، في البيت في الشارع مع الانسان والحيوان والجماد ومع ربه.

وكل دقيقة وساعة ولحظة في حياة الانسان هي عبادة باتصالها بالله تعالى ببداية التسمية في كل شيء والأدعية التي تقال عند كل عمل والنية الخالصة قبل العمل.

وليس هناك نظاماً آخر يعالج النفس البشرية بهذه الدقة وذلك الشمول.

فهناك نظم آمنت بالجانب المحسوس من الانسان فقط بحيث إن كل ما تدركه الحواس فلم تؤمن فهو حقيقة. وما لاتدركه فهو غير موجود وأهملت كل ما لا تدركه الحواس وأهملت الله والعقيدة والأخلاق. وكانت النتيجة الانهيار وخواء الحياة وصراع النفوس والتكالب على شهوات الأرض كما أن هناك نظما آمنت بالجانب الروحي فقط وعدت كل ماعداه خداع وزبد يذهب جُفاءً. فراحت تتعبد وتتنسك وترفع الإنسان على ضرورات جسده كلها وتقهر هذا الجسد لأنه دنس ورجس عندهم. فكانت النتيجة أن تمرد الجسد المكبوت، وكفر الناس بمتاع الروح وكانت الإصابة بالسلبية الخاملة التي لا تنتج شيئاً في واقع الأرض.

كلاهما إنحراف بالإنسان عن الخلافة الحقة التي أرادها الله أما الإسلام يجمع كلتا النظريتين(٥) شمولية متوازنة متكاملة فيجعل ساعة للعبادة وساعة للتفكر وساعة للعمل وساعة للاستمتاع مع وجود ترابط بينهم وامتزاج.

فالأخلاق الإسلامية تأخذ مفهوما واسعاً شاملاً يختلف إختلافا جذريا عما هي عليه في الأديان الأخرى. فالإسلام يوحد بين الماديات والروحانيات أو بمعنى آخر بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية ومايدخل تحتهما من أنواع من أخلاق فردية وأخلاق أسرية وأخلاق اجتماعية وأخلاق اقتصادية، وأخلاق سياسية وأخلاق علمية.

وأهم مظاهر شمول الأخلاق الإسلاميه هي بعض الشواهد الدالة عليها من القرآن والسنة وخاصة المتعلقة بالتمسك بفضائل الأخلاق من إحسان ورحمة وشفقة ورفق وغيرها في علاقة الإنسان بالحيوان.

وبذلك تكون الدعوة الإسلامية قد سبقت بقرون طويله ما تنادى به جمعيات الرفق بالحيوان الحديثة والتى نلاحظها في بعض البلدان الغربية ويعدون هذا ميزه تميزهم عن غيرهم من الناس. وينكرون أو يتجاهلون أن القران الكريم والسنة المطهرة قد عُنيا بالانسان والحيوان فكل منهما له حقوق قال تعالى ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ﴾ «الأنعام: ٣٨» ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» (٦).

فالرحمة في الإسلام رحمة عامة يقول الرسول الكريم «لن تؤمنوا حتى ترحموا قالوا: يارسول الله كلنا رحيم، قال إنه ليس يرحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة»(٧).

وقال ﷺ «من لايرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء». (٨)

وجاء في الحديث أن امرأة بغياً رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها أى خفها فغفر لها به»(٩).

فلئن كانت الرحمة بالكلب تغفر ذنوب البغية فكيف بالرحمة بالبشر ؟ ! ولعل من يدّعون الرحمة بالحيوان يدركون فأساة القتل والتشريد للمسلمين صباح مساء . في فلسطين وغيرها .

ولم تقف شمولية الإسلام عند هذا الحد فقد اهتم بالعلاقة الخاصة بالإنسان ينظمها ويرعاها بوضع قواعد نفسية وخلقية وصحية لها . ينظم نومه وراحته ونشاطه .

وفوق ذلك كله نظم الإسلام المجتمع الذي يتحرك فيه الانسان : البيئة وسلامتها ورعايتها ، وحماية النبتة والشجرة والحيوان وثروة الأمه كلها .

كذلك نظم علاقه المسلم بغير المسلم وحدد حقوق أهل الكتاب في دار الإسلام في حالة السلم والحرب(١٠) .

وبعد هذا العرض الموجز لشمولية الأخلاق الإسلامية فلا نستطيع أن نورد تفصيلات هذا كله وربما كانت كل جزئية عرضناها هنا تحتاج إلى كتاب مستقل لدراستها وإيراد الأدلة عليها من الكتاب والسنة .

وحيث إن الشمولية أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم فهو كتاب تربوى ونفسي وأخلاقى واجتماعي وسياسى واقتصادي ، إنه إعجاز يتحدى البشرية كلها أبد الآبدين .

ومن هنا يتضح لنا إن الشمول والكمال يتبدى في أمور كثيرة ومنها :

١ – أن العقيدة أعطت للمسلم تصوراً كاملا عن الإنسان والكون والحياة ، كما تعطى تفسيراً للقضايا الكبرى التي شغلت الفكر الإنسانى ولاتزال تشغله .

فالإنسان كان ولايزال يتساءل عن أصله ونشأته، ومصيرة، ونهايته، وعلاقته بخالقه، ودوره في الوجود، والعوالم الخافية وراء هذا الكون وعلاقته بتلك العوالم. والعقيدة تجيب عن ذلك كله.

٢ - قدم الإسلام للبشرية منهجا للحياة الواقعية شاملاً كافة جوانبها سواء كان الانسان متفرداً أو مجتمعاً أو ناظراً إلى دنياه أو آخرته مسالما أو محاربا مع نفسه أو حاكمه.

٣ - إحاطة الشريعة بالإنسان فهى من جانب تصاحب الإنسان طفلاً وشاباً وشيخاً.

فنجد الإسلام أعطي أحكاماً للمولود تتعلق به منذ ساعة ولادته مثل إماطة الأذى عنه، والآذان في أذنيه واختيار أحسن الأسماء وذبح عقيقة عنه شكراً لله.

كما نجد أحكاماً تتعلق بإرضاع الرضيع من حيث مدة الرضاعة والفطام والمرضعة ثم نجد أحكاما تتعلق به صبيا وشابا وكهلاً وشيخاً فلاتوجد مرحلة من حياته إلا ولها أحكام وتوجيهات خلقية، بل أكثر من ذلك فهناك أحكام تتعلق بالإنسان قبل أن يولد فله حق الحياة، والاهتمام بغذائه، ولذا كانت حرمة الاجهاض، وكانت رخصة الإفطار للأم الحامل في رمضان إذا خافت على جنينها وبعد الإنسان وجدنا الإسلام قد شرع وجوب تغسيله وتكفينه والصلاة عليه والدعاء له وتنفيذ وصاياه وقضاء ديونه وغير ذلك مما هو في كتاب الجنائز.

٤ - الشريعة تشمل كل الأسس والضوابط التي تنظم حياة الناس وتكفل أمنهم وترعى حقوقهم مما يعنى به علم القانون اليوم في فروعه المختلفة : القانون الجنائي، القانون المدنى، القانون الادارى والقانون المالي والقانون الدولي.

الخاصية الثانية : الصلاحية العامة لكل زمان ومكان

دعا الإسلام إلى الأخلاق الكريمة دعوة عامة قال تعالى ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا** ﴾ (الإسراء: ٥٣) والقول بما هو أحسن هو دعوة عامة للقول الطيب المطلوب بجميع أنواعه في الخطاب والحوار وفي قوله تعالى ﴿ ... **وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النحل: ٩٠) دعوة عامة للابتعاد عن رذائل الأخلاق. وفي السنة النبوية من هذه الدعوة العامة إلى الأخلاق الشيء الكثير من ذلك قوله ﷺ لرجل: «اتق الله حيثما كنت» قال زدني قال: واتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدني قال: وخالق الناس بخلق حسن»(١١). وجاء «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجه الصائم القائم»(١٢) فقد جاء الإسلام دعوة للناس كافة لايختص بأمة دون أمة ولازمن دون زمن ولا مجتمع دون آخر، وهو لم يميز في دعوته إلى طريق الله شعباً دون أخر، فليس الإسلام قاصراً على العرب دون سواهم ولكنه بلاغ لجميع البشر ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ (سبأ: ٢٨).

فالإسلام ينظر إلى الناس على أنهم يشكلون وحدة إنسانية لاتمايز فيها بين شعوبها وأفرادها في الأصل أو الطبيعة (١٣) ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (الحجرات / ١٣)

ولذا جاءت الأخلاق الإسلامية عامة وجاءت تشريعاته صالحة لأن تعالج المشكلات المستجدة والمسائل الطارئة في كل زمان، وأن تأخذ بإصلاح الناس في

أي مكان فكل فضائل الأخلاق من كرم وشجاعه وإيثار... إلى غير ذلك فهى منذ أن جاءت ونادت بها الشريعة الإسلامية لايتغير معناها إلى يوم القيامه.

والإسلام جاء مقرراً شاملا لما جاء به الانبياء السابقون من عقيدة توحيد وقيم وأخلاق وتعاليم ساميه بمايميز الإسلام في شموله وعمومه وصلاحيته لكل زمان ومكان.

والأخلاق الإسلامية لاتنتهى بفترة زمنية معينة ولا بمكان دون مكان، وإنما تمتد على طول حياة الانسان كلها، فهى تربية أخلاقية من المهد إلى اللحد.

وهي تربية متجددة باستمرار تنمى شخصية الفرد وتثرى إنسانيته كما أنها تأخذ به إلى الأمام في طريق النمو والتقدم المستمرين، فالحياة لاتسير على وتيرة واحدة فهى تتغير وتتطور ولابد للإنسان أن يساير هذا التطو وإلا تخلف عن ركب الحياة.

والإسلام يساير هذا التطور لأنه صالح لكل زمان ومكان لأنه يستند إلى كتاب أحكمت آياته من لدن حكيم خبير، والشريعة الإسلامية مطاوعة لكل زمان ومكان ومتمشيه مع كل عصر.

وقد ورد عن على بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال «علموا أولادكم غير ماعلمتم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم».

إن تشريعات الإسلام تساوى بين الناس في الأحكام القضائية وفي أداء العبادات والشعائر وإقامة الأحكام على أساس العدالة العامة حتى مع غير المسلمين، وقصة المصرى مع ولد عمرو بن العاص المشهورة خير دليل على ذلك

ووجد في الإسلام الأبيض والأسود والعربيى والافريقى والأوروبي وكثير من الأجناس. ولقد آخى الإسلام بينهم كما آخى الرسول بين سلمان الفارسى وبلال الحبشى وصهيب الرومى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ «الحجرات: ١٠».

فالأخلاق الإسلامية هي أخلاق عالميه وبهذا جاء في خطبة الوداع «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن اكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمي ولا لعجمى على عربى ولا أحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى»(١٤).

هذه الأخوة هي التى ردت الناس جميعاً إلى أسرة واحدة استطاع معها الإسلام ان يدفن العصبية ويقتلع جذورها ويقضى عليها. ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصيته لسعد بن أبي وقاص «إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء».

وفي سيرة الرسول ﷺ يتضح لنا مدى المساواة والعدل وسائر الأخلاق بين المسلمين جميعاً دونما عنصرية بين أحد فلقد أقبل عبدالله بن أم مكتوم يطلب العلم فشغل عنه الرسول حرصاً على إسلام بعض الأشراف والأقوياء بمكة رعاية لمصلحة الدعوة فجاءت الآيات في صدر سورة «عبس» تقرر حق المساواة للجميع في العلم والإيمان والعمل.

والأمثلة على ذلك كثيرة: فمن كان يظن أن عبداً مثل بلال الحبشى يصل إلى ما وصل إليه بمقدار ثباته وإيمانه وبذله وعمله تلك الإنسانية والمساواة هى التى تنادى بها الأمم في عصرنا: هذا فالولايات المتحدة الأمريكية تدعي الديمقراطية

وتنادي بها وهي تفرق في مختلف مظاهر حياتها بين الأبيض والأسود حتى في الشئون القضائية(١٥).

والإسلام لم يكتف بالدعوة العامة إلى التحلى بالأخلاق الحميدة والتخلى عن الأخلاق الرديئة: وإنما فصل القول في الصنفين يبين أنواع كل صنف لتوضيح معاني الأخلاق، وتحديدها لئلا يختلف الناس فيها وتتدخل الأهواء في تحديد المراد فيها. ومن مظاهر رحمة الله بعباده أن بين لهم مايتقون وما يأخذون ومايتركون من مثل:

الوفاء بالعهد يقول تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾ (الإسراء: ٣٤) ومثل النهى عن القول بلا علم «ولا تقفُ ماليس لك به علم» ومثل الأمر بالعدل ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ**﴾ (الأنعام: ١٥٢) ومثل الكذب والنهى عنه «إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب» ومثل الأمر بالصبر ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وهناك آيات جمعت جملة من الفضائل وجعلت هذه الأخلاق علامة على إيمانهم قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَئِكَ هُمُ

الْوَارِثُونَ﴾ (المؤمنون: ١ - ١٠) هذه الفضائل وغيرها كثير مما لايعد ولايحصى.

أما في السنة.

١ - ففي النهي عن الغضب قال أبو الدرداء: قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال: «لا تغضب»(١٦).

٢ - وفي إقرارحقوق المسلم والنهي عن بعض الأخلاق يقول الرسول الكريم ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» (١٧).

٣ - كما ورد النهي عن ترك الكلام فيما لا طائل من ورائه وعدم التدخل في شئون الآخرين يقول ﷺ: (من حسن إسلام المرءتركة مالا يعنيه)(١٨).

٤ - وقد ورد النهي عن العجب والشح واتباع الهوي يقول ﷺ: (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب كل المرء بنفسه)(١٩).

٥ - كما وجهت السنة إلى ضرورة تحلى المسلم بالحزم واليقظة يقول ﷺ: (لايلدغ المؤمن من حجر مرتين)(٢٠).

الخاصية الثالثة: إقناع العقل والعاطفة

ولكون هذا النظام نظاماً ربانياً والحاكمية فيه لله وحده فقد جاء كاملاً وافيا بحاجات البشرية فالله هو مبدعه. وما من شك أن اختياره لعباده وهو الحليم العليم أصلح من اختيارهم لأنفسهم وهم بشر ضعاف لم يؤتوا من العلم إلا قليلا يتأثرون بضعفهم البشري ويتأثرون بأهوائهم الفردية، ويتأثرون بمصالحهم

الشخصية أو الطبيقة ويتأثرون على الأقل بعلمهم المحدود المحجوب عن إدراك الأسباب والنتائج مجتمعة في عمرهم القصير.

أما حين يشرع الله للبشر فهو يشرع بعلم كامل متكامل وبعدل كامل فالكل عند الله عبيد خاضعون لله تعالى وجاء هذا النظام بالقابلية الكافية لمواجهة الحاجات البشرية المتجدده والتطورات البشرية المتلاحقة. وهذا النظام دقيق في تكوينه، متكامل في أجزائه فكل جزء فيه يكمل الآخر في تناسق بديع(٢١).

والنظام الأخلاقى في الإسلام مرتبط بكافة النظم الإسلامية الأخرى مثل النظام المالى والسياسى والاجتماعي، فالأخلاق هى العنصر الأصيل.

والإسلام ينظر إلى الانسان نظرة شاملة من جميع نواحيه الجسميه والعقليه والنفسية والاجتماعية ومن الجدير بالذكر أن فطرة الانسان اذا ما تركت دون مؤثرات خارجية فإنها تهتدى إلى الطريق السليم يقول الرسول الكريم «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(٢٢).

وللبيئة دورها في الاصلاح والافساد والإسلام لايحجر على الفكر بل قد وصل المسلم إلى ذروة الإستقلال العقلى والحريه الفكرية لأنه خرج من الإستبداد الفكرى ومن الحجر والوصاية على عقله فهو بعيد عن سجن الايدلوجيات المادية الماركسية(٢٣).

فالإسلام قام على إقناع العقل والعاطفة دون إرغام أو إجبار أو إكراه حيث أكد على الشورى بين المسلمين.

وغير المسلمين أقر لهم حرية العقيدة ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) والشريعه الإسلاميه بما فيها من نظم وأخلاق ومبادىء امتازت بخاصية إقناع

العقل إذ بالعقل يستطيع المسلم أن يتبين النافع والضار والحلال والحرام ويخرج شعباً متحضراً حضاره راقية وتوسيع الآفاق الفكرية وتثقيف العقل البشري والحض على طلب العلم بل جعلته فريضة، كذلك كانت الأخلاق الاسلامية تعتمد على إقناع العاطفة حيث كان من وسائل التربية الخلقية طريق الترغيب والترهيب وأخذ العبرة من التاريخ والحض على القدوة الحسنة ومخافة الله.

وعندما تتمكن التعاليم الشرعية في نفس الفرد ومشاعره ويقتنع بها تصبح بمثابة ضابط خلقى يحاكم المرء نفسه إليه عندما يقف أمام أمور مشتبهات، كبعض أساليب البيع والشراء والضابط الخلقى غير الوازع التربوى الدينى فالوازع يبعدك عن موضوع المحرمات بالكلية، ولكن الضابط هو الذى يقول لك بدقة هذه حدود المحرمات في البيوع فلا تقترب منها والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فصن نفسك عن النظر إلى الأجنبيات، لذلك كانت تربية هذا الضابط تتم في حلقات العلم، والدافع الحقيقى لهذا الضابط هو الخوف من الله وهذه هى الميزة الاساسية التي تميز الشريعة عن القانون(٢١).

وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التى تخص أولى الألباب بالموعظة والحض على التقوى والاعتبار بقصص القران وبدلائل قدرة الله في الكون وبالتذكر، والهداية.

وهكذا نلاحظ أن التربية الخلقية تدعو العقل إلى ممارسة حقه في البرهان والاقتناع والتأمل والملاحظة واستخدام الحجج العقلية المنطقية وتعمل على تنمية العقل بأفضل أساليب النمو ولكنها لا تسمح للعقل بالغرور والتكبر عن قبول الحق والصمم عن سماع الحجة المنطقية في سبيل التمسك بالأهواء والشهوات،

أو التحجر والتصلب والاستمرار في الباطل من أجل منصب أو جاه أو عزة زائفة.

فالتربية الخلقية تنمى العقل على التفكير السليم، والتواضع والتسليم بالحق، والأمانة العلمية و الانتفاع بما يعلم وعدم الاتباع الأعمى والبعد عن الظن(٢٦).

والتربية الإسلامية الخلقية قد بدأت ببناء النفس من الداخل لأنه أساس العمل الناجح الذى ينبع عن النفس البشرية فلما أتمت ذلك البناء بدأت في تغيير المجتمع الذى تعيش فيه على أسس الأخلاق الإسلامية وهذا ضرورى لبناء المجتمع في جميع مجالاته.

وبذلك كفلت هذه التربية لكل فرد حاجته وسعادته كما كفلت للمجتمع كله ترابطه وطمأنينته وهي تنظم انفعالات المؤمن وتجعله يسير على منهج الله بجانب واجباته في الحياة(٢) . والتربية التي تبدأ من داخل النفس تجعل الانسان يعمل وفي الوقت نفسه يعبد الله كأنه يراه ومن هنا لايحتاج إلى رقيب خارجي لوجود الرقيب الداخلى.

ثم إن الإسلام يهون شأن الدنيا التي قد تصيب المسلمين ببعض الابتلاء وسيوفيهم أجورهم يوم القيامة.

وفي مجتمعنا المعاصر نرى أعداء الإسلام يحاولون إبعاد المسلمين عن شمولية دينهم وصرفهم إلى قضايا جزئية كحرية المرأة وماذا تعدد الزوجات وماذا الطلاق بيد الرجل بالإضافة إلى شغلهم بالفرعيات وترك الأولويات الكبرى. بحيث تستنفذ جهدهم ووقتهم وتصرف المسلمين عن هدفهم الأساسى. ولقد نجحوا في الفترة الماضية إلى حد في هذا ولكن المسلمين لم ينتبهوا إلى ما يكيده لهم أعداؤهم(٢٧).

وهكذا يكون منهج التربية في الإسلام منهجاً متكاملاً يعنى بتربية الجسم والروح والعقل معاً، ولذا وجدنا كل عبادة في الإسلام تقوم على هذه الأسس الثلاثة فمثلاً :الصلاة جمعت بين الأعمال الجسدية من تكبير وسجود وقيام وبين الاعمال العقليه بالقراءة فيها وما تتطلبه من إعمال الفكر فيها بالتدبر والتفكر وجمعت كذلك أعمالاً روحية عاطفية توقظ القلب وتخاطب المشاعر الحية.

كما أن تقوية معاني العقيدة الإسلامية في النفس يؤدى إلى انفتاح النفس وتقبلها لمعاني الأخلاق الإسلامية لأن هذه الأخلاق موصولة بالإيمان ومعاني التقوى وهذه الصلة تشتد كلما قوى الايمان في النفس ورسخت العقيدة فيها مما يجعل أخلاق المسلم راسخه ثابتة لاتضعف ومستمرة.

الخاصية الرابعة : المسؤولية الأخلاقية والجماعية

من المبادىء التي تقوم عليها فلسفة الأخلاق الإسلامية هي الإيمان بأن النظرية الخلقية لا تكتمل إلا إذا حددت فيها خمسة جوانب رئيسية هي :

الضمير الخلقي ، الإلزام الخلقي ، والحكم الخلقي ، والمسؤولية الخلقية ، والجزاء الخلقي .

لأن هذه الجوانب أوالعناصر مكونات رئيسية لأية نظرية خلقية . ولابد لأى راغب في بناء مثل هذه النظرية أن يحدد موقفه من هذه الجوانب أو العناصر فيحدد معناها ومصادرها ومقاييسها وشروطها وغير ذلك من الأمور المتعلقه بها .

أولا : الضمير الخلقي.

أبسط تعريف للضمير ويتمشى مع روح الإسلام هو أنه :

الوازع الداخلى أو السلطة الداخلية التى تراقب من الداخل أعمال الإنسان الخارجية فتحكم لها أو عليها أو هو «مركز التوجيه في الإنسان يعظه ويوجهه ويقود نياته ومقاصده وأفعاله ويضئ علاقاته بالآخرين وعلاقته بربة أو هو الشعور النفسى الداخلى الذى تنعكس عليه أعمال المرء فيرى فيها تقدير هذه الأعمال ويتسنى له أن يحكم عليها بالخير أو الشر»(٢٨) .

وهذه التعريفات غير مختلفة في معناها عند النظر فيها والضمير الخلقى في مفهومه الإسلامي ليس فطرياً بل هو أمر أو قوة مكتسبة ، يكتسبها الإنسان عن طريق التربية الدينية والممارسة الفعلية المستمرة للقيم الخلقية المرغوبة وعن طريق العبادة والرياضة الروحية ومجاهدة النفس . ولعل خير وسيله لتكوين ضمير

خلقي معتدل هي التربية المعتدلة البعيدة عن التزمت والمستوحاة في فلسفتها وأهدافها وطرقها ووسائلها من روح الدين الإسلامي وتعاليمه.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «مرو أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع»(٢٩). ويقول أيضا «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخيرَّ الخير يعطه ومن يتوق الشريوقه»(٣٠).

وإنما كان كذلك لأن العبادة تجدد الإيمان وتعصم من الانزلاق الخلقى، وتحفظ من اتباع الشهوات، وتباعد بين الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء، وتبعث فيه الرغبه في التسامى والشوق لمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

هذا من جانب ،والإسلام من جانب يمدح الفضائل ويَعِد عليها بحسن الجزاء كما يذم الرذائل ويتهدد مقترفيها بشر العواقب، ثم هو يتخذ جميع الذرائع لغرس العدل والإنصاف وإحياء فضيلة الإيثار وإنكار الذات، ويحبب إلى النفس المعاونة والمؤازرة والمحبة والرحمة والكرم والإحسان، ويروضها على الصدق والإخلاص والأمانة والوفاء.

وما من سبب من الأسباب التي تبعث على علوالهمة والإباء والقناعة ومجانبة الربا واحتمال الأذى من أجل الحق والصبر على تبعاته إلا وله في تعاليم الإسلام مجال رحب وميدان فسيح(٣١) والضمير الخلقى أو الوازع الخلقى أو الوجدان الخلقى لايخرج في مفهومه الإسلامي عن الضمير الديني أو الوازع الدينى أو روح التدين والتقوى، فلا يعتد في الإسلام بخلق بدون دين كذلك لا يعتد ضمير بدون دين فالدين أو التدين وماينشأ عنه من مراقبة دائمة وخشية لله وإحساس بهيمنة الله وإطلاعه على ما ظهرو مابطن من حياة الإنسان هو الأساس الذى يقوم عليه الضمير الخلقى في الإسلام(٣٢).

هذا : والضمير في القرآن الكريم لم يرد بهذا اللفظ وإنما ورد بمعان كثيرة تدل عليه فأحيانا يدل على معنى الستر والخفية بحيث يقال أضمر الانسان في نفسه شيئاً أى أخفاه . وقد يدل على تلك القوة المعنوية التي تصده عن العمل القبيح وتحرضه على التصرف الحميد بمعنى الخوف من الله أو خشية الرب بالغيب أو محاسبة النفس أو مراقبة الخالق)(٣٣) .

ويقول العلماء إن كلمة «مسلم» تعنى بنفسها كلمة «ضمير» لأن معنى أنا مسلم يعنى : أسلمت نفسى لله وأسلم ظاهرى وباطنى . كذلك فسرت كلمة «رقيب» في القرآن التى وردت في العديد من الآيات بالضمير «إنْ كل نفس لما عليها حافظ» أى الرقيب وهو الضمير .

ولقد قال أحد الحكماء : «إن ضميراً بلا اعتقاد في الله يكون كمحكمة ليس بها قضاة» .

ومتى تحققت هذه الخشية تحقق الضمير الإسلامي المصاحب الدائم الذى لايخون والذى يبلغ بصاحبه درجة الإحسان ، وهي أعلى مراتب العبادة والتي فسرها الرسول ﷺ بقوله : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تره فإنه يراك»(٣٤) .

والحديث عن الضمير في القرآن والسنة والحكم المأثورة متعدد بحيث يصعب حصره .

ثانياً : الإلزام الخلقى

من الأهمية بمكان أن ندرك أنه لاقيمة لأية مبادئ وقواعد خلقية إذا لم تتضمن إلزام الناس باتباعها والالتزام بتنفيذها والعمل بمقتضاها .

ولكن هذا الإلزام إذ لم يكن نابعاً من داخل الانسان فلن تكتمل الأخلاق عند الفرد. إلا بوجود دوافع ونوازع داخلية يحسب معها الشخص بالتحرك نحو الهدف المطلوب في سهولة ويسر واندفاع.

والمصدر الأول والحقيقى للإلزام الخلقى هوالدين وما يحتويه من أوامر ونواه وترغيب وترهيب وماينشأ عنه من ضمير ديني ورقابة الله في الحركات والسكنات من قبل الانسان.

والانسان في طبعه وفطرته يميل إلى الإلتزام : بأشياء معنية ينفذها ولو وجد نفسه طليقاً من كل التزام خارجي لفرض على نفسه أموراً معينة .وإلتزامه بها إرضاء لما في طبيعته من ميل للإلتزام، ومن ثم فالفوضى المطلقة لا وجود لها ولا يمكن أن توجد لأنها ليست جزءاً من طبيعة الإنسان...

فحياة الفرد لا تنتظم إلا بالتزامه نظاماً معينا في معيشته نظاما، يشمل كل شيء وكل سلوك... وحياة المجتمع لا تستقيم كذلك إلا بالتزام معين يشمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسلوكية والخلقية والروحية...)(٣٥).

والحقيقة أننا إذا نظرنا إلى الإسلام عامة ومنهج القرآن خاصة نجده يؤي دوره النفسي والاجتماعي عن طريق التطور النفسي، وليس عن طريق الإلزام الخارجي وإنما يجعل الذات هي التي تتحرك وتسير نحو الهدف المطلوب في يسر ورغبة بل وفي اندفاع في الرغبة.

والأمر والنهي الوارد ان في القرآن الكريم ما هما إلا تعبير عن وضع نفسي قائم بالفعل بناء عن باعث ذاتي واستعاد داخل النفس للأمر أو النهي(٣٦).

لذا: كان القرآن الكريم عند الحث على فعل فضيلة يجعل تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسي أو بمقدار ما يطلبه الإنسان من تلقاء نفسه ولا يضطره أحد إلى طلبه.

وبالرغم من أن المصدر الأول والحقيقي للإلزام الخلقي هو الدين وما يحتويه من أوامر ونواه وترغيب وترهيب ولكن وجدنا هناك مصادر أخرى فرعية يعترف بها الدين وتستمد تأثيرها الإلزامي منه وهي:

العقل، الضمير، الترغيب والترهيب، الكفارات، الرأي العام، ووازع السلطان.

والقرآن الكريم والسنة النبوية قد استكملت هذه المصادر ولقد جاء هذا التعدد والتنوع طبقاً لاختلاف الطبيعة البشرية واختلاف استعدادات الناس للتأثيرات فمن الناس من لا يردعه إلا العقل وذلك كالحكماء والمفكرين ومن الناس من لا ينفعه العقل ولكن ينفعه وازع الضمير وهم الكثرة من الناس، ومنهم من يحتاج في إلزامه إلى أسلوب الترغيب والترهيب وهكذا.

وجاءت السنة محتوية على هذا من ذلك قول الرسول ﷺ: «من رأي منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه».

وهكذا وجدنا في ذلك التعدد الرحمة العامة للإسلام حيث إن وازع العقل لا يكفي وحده لأن القلائل هم الذين يكتفون بذلك من العلماء، ووازع الضمير قد لا ينفع مع المجرمين الذين قد يصل بهم الأمر إلى موت الضمير، ووازع الترهيب قد لا ينفع مع بعض المشككين.

ووازع الرأي العام وحده لا يكفي لأن من الناس من لا يستحي من أحد لكثرة ذنوبهم. كذلك وازع العقوبات قد لا ينفع مع بعض مساوئ الأخلاق لاسيما

التى لم يرد بشأنها في القرآن والسنة جزاء ولا عقوبة كالكذب والنفاق، لهذا كله كان لابد من نضافر كل وزاع للإنسان.

ولكن بالرغم من حاجة الناس إليها جميعاً إلا أن وازع الدين يظل أقواها جميعاً في نفس المسلم وحينئذ يكون أكثر التزاماً وليس ذلك لدافع شخص وإنما ابتغاء رضوان الله وحسن مثوبته(٣٧).

ثالثاً : الحكم الخلقي :

• مقياس الحكم الخلقي :

الحكم الخلقي المقصود به تقدير القيمة الخلقية للفعل الإنساني على قدر ما يحمله في طياته أو يتضمنه من مقومات الخير أو الشر ، أو على قدر ما فيه من خيرية أو شرية ، ولابد لهذا الحكم الخلقي أو الأخلاقي من معايير أو مقاييس يبنى عليها ، وهي لا تخرج بالنسبة للمسلم عن المبادئ والقواعد العامة الخلقية التي أتى بها الإسلام وتضمنتها تعاليمه وأوامره ونواهيه ، وذلك على أساس الشرع هو مصدر الحكم بالخيرية أو الشرية على أفعال الناس .

أما من قال إن العقل يستقل بالحكم على الأفعال فنحن نرفض هذا الرأي لقصور العقل أن يستقل بهذا ولكن نقبل أن يكون العقل مقياساً مدعماً للدين فيكون الفعل خيراً أو شراً إذا وافق الشرع والعقل معاً وهذا الرأي هو ما وافق عليه الجمهور ومنهم الإمام الغزالي وجمهور الأخلاقيين قديماً وحديثاً .

وفي إطار هذين المصدرين يكون مقياس الحكم الخلقي :

١ - مقياس الشرع .

٢ - مقياس العقل .

٣ - مقياس النية الحسنة ومقاييس فرعية مثل : مقياس تمشى الفعل مع تعاليم الدين وقيمه ومثله العليا ، ولذا نحكم على فعل الغير نسبياً وليس مطلقاً .

ومقياس الحق والعدل ، ومقياس الواجبية أو الشعور بالواجب والتبعية والمسؤلية ، ومقياس القوة والجمال ، ومقياس النفع العام ، ومقياس الاطمئنان النفسي ، ومقياس اليسر والتكليف بالوسع الذي يطاق .

إلي غير ذلك من المقاييس الخلقية التي يمكن استنباطها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة بالقيم الخلقية الإسلامية. والتي بناء عليها يحكم بالحسن والقبيح على الفعل(٣٨). من ذلك قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ «الرعد: ١٧» وقوله ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ «البقرة: ٢٨٦». وقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» (٣٩) وقوله ﷺ: البر حسن الخلق والإثم ما حال في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»(٤٠).

وفي هذا يقول بسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) وهو من ذهب إلى هذا المذهب يقول متهكماً: «من النيات والمقاصد أخذ بلاط جهنم» ويقرر أصحاب هذا الاتجاه أن العمل يكون شراً إذا كان ممنوعاً خلقياً. مهما حسنت فيه نية العامل ويكون خيراً إذا كان مندوبا إليه بقطع النظر عن النية التي صدر عنها.

ورغم أن هذا الاتجاه يحرص على استقامة السلوك إلا أنه يسقط من اعتباره أهم عنصر في الفعل الخلقي وهو النية مما يؤيده الكتاب والسنة(٤١). وحديث القاتل والمقتول في النار قلنا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه؛ يعتبر خير شاهد على ذلك.

رابعاً : المسؤولية :

ترتبط فكرة المسؤلية بفكرة الإلزام بمعنى أن الإلتزام يستتبعه ناتجان أحدهما يستلزم الآخر ويؤيده ويدعمه وهما : فكرة المسؤلية – وفكرة الجزاء.

فالالتزام بلا مسؤولية يعنى القول بوجود إلزام بلا فرد ملزم وهذا مستحيل ولابد من وجود جزاء مناسب.

والمسؤولية قبل كل شيء هى استعداد فطرى، وهي أيضا المقدرة على أن يلزم المرء نفسه أولاً، والقدرة على أن يفى بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصة(٤٢).

وهي لب العمل الخلقى ومناط الحكم الخلقى ومناط الجزاء وما يرتبط به من ثواب أو عقاب بأنواعه المختلفة.

والشعور بالمسؤولية أمر قائم فطرى لن نستطيع أن نتحلل منه تماماً في أية لحظة من لحظات حياتنا الواعية، ولكن هذا لا يمنع أن تكون حيوية الشعور مختلف من فرد إلى فرد وهناك من يحاول التغاضي عن هذا الشعور أو لا يتحمله وهذا يكون قد فقد الشعور بالمسؤلية. أما الشعور بالمسؤولية بالمعنى الدقيق فإنه لا يفقد أبداً.

فالمسؤولية إذن صفة يستمدها الإنسان من فطرته الإنسانية قبل أن يتلقاها من الخارج.

وقد أطلقت أسماء مختلفة على ظاهرة المسؤولية فكان سقراط يعنى بها (الروح الإلهى) ونحن اليوم حينما نتحدث عن الضمير فأننا نعنى به الشعور بالمسؤلية(٤٣).

«وحرية الإرادة» هي أساس المسؤولية الخلقية وهذا يعنى أن كل فعل لا يصدر عن حرية واعية لا تترتب عليه أية مسؤولية خلقية والمسؤولية صفة تلازم صاحبها من قبل أن يبدأ الفعل إلى ما بعد انتهائه في مراحل متدرجة علي النحو التالي :

١ - المرحلة الأولى : مرحلة ما قبل الفعل وهي مرحلة نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل ، والمسؤولية هنا تنظر إلى المستقبل فهى مسؤولية تكليف ومطالبة .

٢ - المرحلة الثانية : مرحلة الإجابة لهذا النداء بالإيجاب وبالسلب .

٣ - المرحلة الثالثة : مرحلة المحاسبة والتقدير لقيمة هذه الإجابة وتأتى هذه المرحلة بعد الفعل . والمسؤولية هنا تلتفت إلى الماضى فهى مسؤولية استجواب ومحاسبة .

يقول الرسول الكريم ﷺ : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل في أهله راع ومسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولية عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته)(٤٤) .

ولا نستطيع أن نحكم على أى فعل إنساني بأنه فعل أخلاقي ولا أن نرتب عليه أى جزاء خلقى إلا اذا توفرت لصاحبه مقومات وشروط المسؤولية الخلقية وانتفت عنه موانعها ومن الشروط التي لا تتحقق المسؤولية الخلقية إلا عند توافرها لدى الإنسان هي :

١ - الإرادة الحرة التى يمتاز بها الإنسان على سائر الحيوانات وجميع الكائنات المادية ، والتي تجعل الإنسان يقدم على الفعل أو يمتنع عنه وهو بكامل قصده واختياره .

٢ – العقل السليم والوعى الكامل اللذان يمكنان الإنسان من التمييز بين الأشياء والأفعال.

٣ – الاختيار الحكيم من بين البدائل المتعددة الممكنة للسلوك والتصرف.

٤ – القدرة البدنية والعقلية والنفسية التي تمكن الإنسان من القيام بالفعل المرغوب خلقياً إذا أراده والاعتقاد الجازم والقيام بالفعل حسب هذا الاعتقاد.

فهذه الأمور الأربعة هي الشروط الأساسية للمسؤولية الخلقية، بحيث توجد المسؤولية بتوافرها كلها وتنتفى بانتفائها كلها أو بعضها(٤٥).

فلا مسؤولية مع الجبر أو عدم القصد ولا مع الجنون أو فقدان الوعى ولا فى العجز البدنى ولا في عدم الاعتقاد.

وذلك كمن شرب خمراً في زجاجة وهو يعتقد أنها عصير فاكهة فليست عليه مؤاخذة ولا مخالفة شرعية لأنه كان يعتقد خلاف ذلك.

والأدلة على ذلك من مصادر الإسلام كثيرة لا تحصى منها قوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١).

وقوله: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦). فأن الإنسان لا يسأل عما يجهل، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم.

وقول ﷺ (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)(٤٦).

وقضية «الوسع» قضية هامة في الفكر الإسلامي لأنها الأساس الذى حدّد الله بموجبه التكاليف على الإنسان. ووهب الله الناس وسعاً محدداً يسمح لهم بالقيام

بالتكاليف حتى يحاسبوا على ذلك يوم القيامة.

وللإنسان عامة وسع عام يشترك فيه الناس جميعاً خلقه الله لهم، وعلى أساس هذا الوسع تقوم التكاليف الربانية العامة من إيمان وعلم ودعوة وبلاغ وجهاد، وجعل الله لحكمة يعلمها تفاوتاً في الوسع بين بعض الناس في مجالات أخرى، فهذا أغنى وهذا أقوى فتزيد المسؤوليات على ضوء هذا الوسع الخاص من حيث حجمها ومداها وتقل مع آخرين حسب قدراتهم الخاصة دون أن تسقط عنهم إلا بعذر شرعي يقبله الله. يقول الله تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق: ٧) فهناك الوسع العام والخاص(٤٧).

ونجد أن هناك ثلاثة أنواع للمسؤولية:

المسؤولية الدينية، والمسؤولية الاجتماعية، والمسؤلية الأخلاقية المحضة.

وجاءت هذه الأنواع الثلاثة في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

فكل مسؤولية هي مسؤولية أخلاقية متى ارتضيناها. وأخلاق القرآن هي مسؤولية دينية(٤٨).

﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلاً﴾.

وقال ﷺ: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان)(٤٩).

ويتبين من تلك الآيات والأحاديث وغيرها، أن الإنسان هو الذى يجعل نفسه مسؤولاً بتدخل إرادى، والمسؤلية التي يتحملها أمام الله تعالى ليست بأقل من المسؤلية التي تقع على كاهله أن يقوم بالواجبات الجوهرية.

ومسألة المسؤولية في الإسلام تناولها الكثير من علمائنا وكتابنا المسلمين منهم على سبيل المثال الأستاذ (عباس محمود العقاد) الذى اعتبر الشعور بالمسؤلية إحدى الخصائص الأساسية للإنسان في مفهوم القرآن والإسلام، حتى إنه عرف الإنسان بأنه (المخلوق المسؤل) وقال :

(لقد ذكر الإنسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة، فلا يعنى ذلك أنه يحمد وندم في آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فُطر عليه من استعداد لكل منهما فهو أهل للخير والشر لأنه أهل للتكليف.

والإنسان مسؤول عن عمله - فرداً أو جماعة - لا يؤخذ واحد بوزر وآخر ولا أمة بوزر غيرها.

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (الطور: ٢١).

وقال : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤١).

أما مناط المسؤلية في القرآن فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الديني أو التشريع في الموضوع.

فهي بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة. تبليغ، وعمل، وعلم.

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة في مسائل الغيب ومسائل الإيمان.

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ «الاسراء: ».

أما العلم فإن أول آية في الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية كانت أمراً بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الإنسان.

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ «العلق: ٥».

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف وبالسعى الذى يسعاه لربه ولنفسه، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ «البقرة: ٢٨٦».

وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد عبدالله دراز.

«... إنه هو الكائن المزود بمؤهلات الخطاب وقوى الفهم والبيان والحرية والإمكان. ذلكم هو الإنسان؛ ما هو ذو عقل وإرادة واقتدار فهو إذن الذى رشحته فطرته لهذه الأعباء فأصبح ذا مسؤلية وموضع أمانة وصاحب نفوذ وسلطان ومصدر إنشاء وابتكار وهو معنى ختام آية الأمانة: «وحملها الإنسان»(٥٢).

وبالرغم من أن الإسلام يؤكد المسؤولية الفردية والشخصية للإنسان ويعتبرها الأساس، فإنه لا يهمل المسؤولية الاجتماعية التي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً متضامنا متماسكاً متعاوناً على الخير يشترك جميع أفراده في تحمل مسؤولية البناء والتعمير والإصلاح بحيث تتعدى مسؤولية الإنسان أفعاله الخاصة

إلى نطاق المجتمع والبيئة المحيطة به.

وبالتالى فالمسؤلية تنقسم لقسمين :

مسئولية فردية - مسئولية اجتماعية.

والقرآن الكريم جاء مؤكداً لهذين النوعين من ذلك :

١ - المسؤلية الفردية :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت : ٤٦).

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر : ٣٨)

٢ - المسؤولية الإجتماعية :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ... ﴾ (آل عمران : ١٠٤)

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران : ١١٠).

وهكذا يتبين لنا من الشواهد التى أوردناها أن المسؤولية في الإسلام هي فردية واجتماعية في آن واحد.

فمتى تحققت شروط المسؤولية في شخص أصبح هذا الشخص ليس فقط مسئولاً عن نفسه بل كذلك مسؤولا عما هو تحت إمرته وولايته ورعايته وإصلاح مجتمعه.

وهذه المسؤولية لا تقتضى فقط أن يكون الفرد مسؤولا نحو مجتمعه بل

كذلك المجتمع هو الآخر مسؤولاً نحو الفرد وليس في الإسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد لأن هاتين المسئولتين هما أولى وسائل الإسلام(٥٢) .

• المسئولية والحرية :

وتعد الحرية شرطا من شروط المسؤولية وهي تمتد بعمق في الضمير الإنساني، بحيث لا يمكن تجاهله وأن من ينكر الحرية فهو بذلك يرفض تحمل مسؤولية تصرفاته. فهذا هو «كانت» منها المَسّلمة الأساسية للحاسة الأخلاقية(٥٣) .

والشعور بالحرية يظهر تماماً للإنسان إذ وقف يقارن بين سلوكين، والإنسان يكون علي وعى بحريته عندما نمارسها وممارسته للحرية في علاقاته مع الآخرين تتمثل في صور مختلفة يمكن إرجاعها إلى ثلاث صور أساسية :

١ - الصورة الأولى : محاولة إشباع هذه الحرية ولو على حساب الآخرين وذلك يتمثل في أن يكون الدافع الرئيسي للسلوك البشرى كله هو «الأنانية» والأخلاق إذن في تلك الصورة تنفيذ لما تقضى به الغريزة.

٢ - الصورة الثانية : وهي على النقيض من الصورة الأولى وتتمثل في أن يكون الدافع الرئيسي للسلوك الإنساني هو غيره ويسمى هذا الاتجاه (بالغيرية) وإذا كانت الأنانية تستند على دافع المحافظة على الذات - فان الغيرية تستند إلى دافع التعاطف مع الاخرين والرغبة في التضحية بالذات فالحياة الطبيعية للإنسان حياة اجتماعية ومن ينشد غير ذلك لن يكون إنساناً سوياً.

وبالتالى فهذا الإنسان الذى يتنازل عن حريته لكي يمر الآخرون لا يحقق الهدف المرجو من الأخلاق.

٣ - الصـورة الثـالثـة : وهي وسط بـين الصـورتـين السـابقـتين فـالإنسـان يمكن أن يحقق وجوده الإنساني في حالة ما إذا اعتبر الآخر وعامله على أنه إنسان أي كائن حر ، وعلى ذلك تكون العلاقة الإنسانية هي علاقة مجتمع يتكون من موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته في سبيل قيام مجتمع إنساني يحقق الخير الأخلاقي .

إذن فلا قيام للأخلاق بدون التوازن بين خير الإنسان وخير الغير(٥٤) .

فالتكليف والمسؤلية يستلزمان قدرة الإنسان وحريته .

الخاصية الخامسة

الجزاء على الخير والشر

في الدنيا والآخرة

والجزاء الخلقي في نظر الإسلام يعتبر أمراً مكملاً للمسؤولية الخلقية والحكم الخلقي؛ حيث إن ما تحققت فيه شروط المسئولية الخلقية وضح الحكم عليه تبعاً لذلك بالخيرية والشرية هو الجدير بالجزاء سواء كان ثواباً أو عقاباً.

والجزاء الخلقي في أبسط معانيه هو ما يترتب على العمل الخلقي من ثواب أو عقاب وذلك حسب ما يتسم به العمل من خيرية أو شرية.

والجزاء في الإسلام يقوم على مبادئ وقواعد قد يكون من أهمها قاعدة المعاملة العادلة التي تقتضي أن يكون الجزاء عادلاً وأن يكون من جنس العمل بحيث يعود كل عمل على صاحبه بمثله ويجازى كل عامل على عمله المسئول عنه جزاء مطابقاً لجنسه ويلقى النتيجة الطبيعية لعمله صالحاً أم طالحاً.

والأصل في الجزاء في الإسلام أنها في الآخرة لا في الدنيا ولكن مقتضيات الحياة وضرورة استقرار المجتمع وتنظيم علاقات الأفراد وضماناً لحقوق الناس كل ذلك دعا إلى أن يكون هناكجزاءً دنيوياً وآخر أخروياً.

والجزاء في الإسلام شامل وواسع لجميع مجالات الحياة والجزاء في الدنيا لا يمنع الجزاء في الآخرة عن المعاصي إلا اذا أقترنت معصيته بالتوبة النصوح والندم والعزم على عدم العودة إلى هذه المخالفة(٥٥).

من ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ «الرحمن / ٦٠» وقوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ «الزلزلة / ٧ : ١١».

وقوله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم»(٥٦).

وقوله (من ستر عورة أخيه ستر الله عورته يوم القيامة)(٥٧)

ولعظيم عظمة الله و رحمته وعدله بعباده أن جعل الجزاء على الجنة مضاعف بعشر أمثالها والسيئة بالمثل.

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون).

خاتمـــــة

وهكذا تتميز الأخلاق الإسلامية بهذه الخصائص وغيرها التي بها تجعل طريقها واضحاً ثابتاً وتكفل للإنسان تربيته في هذه الحياة باعتباره خليفة الله في الأرض أختاره وكرمه ورسم له أسلوب التربية والعمل وزوده بكل القوى الداخلية والخارجية التي تكفل له الحياة المطمئنة بحيث يعيش عيش السعداء عاملاً للدنيا والآخرة ملاقى جزاءه على ذلك بعدل وإنصاف من العلي القدير.

ثانياً : ارتباط الأخلاق بالعقيدة والعبادات

تجد الإشارة إلى أن ثمة ارتباط للأخلاق بكل من العقيدة والعبادات نوضحها على النحو التالي :

أ - ارتباط الأخلاق بالعقيدة :

الأخلاق في الإسلام موصولة بالإيمان والتقوى قال تعالى : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة : ٤) (فالوفاء بالعهد من تقوى الله ومحبته)

وفي الحديث (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)(٥٨)

وقوله (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل من يا رسول الله؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه)(٥٩).

هذه الآيات والأحاديث وأمثالها أكثر من تحصى وكلها تدل دلالة صريحة على أن الإيمان ينافى الأخلاق السيئة ، مما يدل صراحة على مدى ارتباط الدين بالأخلاق .

وقد وضح صاحب الرسالة أن الإيمان القوىّ يلد الخلق القوى حتما ، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان أو فقدانه فقد كان الرسول الكريم يهتم بغرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتى ثمارها معتمداً على صدق الإيمان وكماله .

فقد روى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : (إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وآشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة) ، إن العبد ليبلغ بسوء خلقه أسفل درك جهنم)(٦٠).

فـالأخلاق والعـقـيـدة صـنوان في الإسـلام فـقـد ربط القـرآن بينهـمـا منذ السـاعات الأولى للتكليف بالإنذار العام فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (المدثر: ١ - ٧).

ومن ثم تأتي مرتبـة الأخلاق بعد الإيمان بالله وملائكتـه وكـتـبـه ورسله واليـوم الآخر، وإذا كـان الإيمان بالله وعبـادته يرتبطان في المقـام الأول بعلاقة العبد بربه فإن الأخلاق تـرتبط في المقام الأول بعلاقات الإنسان ومعاملاته مع غيره سواء أكانوا أفراداً أو جماعات.

فـالأخلاق ثمرة من ثمرات الإيمان والعبـادة فلا يتم إيمان الإنسـان إلا عن خلق حسن لذا كان من أبرز عـلامات النفـاق سوء الخلق. قال رسول الله ﷺ «آيه المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»(٦١).

فـبـهـذه الأخـلاق يـتـمـيـز الإنسـان عن الحـيـوان، لذا ورد في القـرآن ألف وخـمـسـمائة وأربع آيات تتصل بالأخلاق النظرية والعملية أي ما يقرب من ربع عدد آيات القرآن الكريم.

والإسـلام جـاء ليكمل البناء الأخـلاقي الذى بدأ به آدم عليـه الـسـلام وأكـمـله محـمـد إذا أن كـثـيـراً من الفـضـائل كـانت معـروفة ومـسـلمة قـبل الإسلام، ولكنها كانت ناقصة ومتفرقة(٦٢).

والأخـلاق في الإسـلام تخـتلف اخـتـلافـاً جـذريـاً عـمـا عليـه في الدين المسـيحي والأديان الأخـرى، فـالإسـلام بتعـاليـمـه وأخلاقه يوحد توحـيـداً

متكاملاً بين الإيمان والعبادات والمعاملات أي أنه لا يفرق بين الماديات والروحانيات أنه دين كلى يهتم بالسلوك المجتمعي الأخلاقي وبالحياة عامة.

روى عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: (اتق الله حيثما كنت واتبع الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)(٦٣).

فالخلق رمز العقيدة، والاستقامة مظهر الايمان، والسلوك السليم ثمرة الاستقامة قال رسول الله ﷺ «قل آمنت بالله ثم استقم»(٦٤).

فكلما كان الإيمان قوياً أثمر خلقاً قوياً يقول الرسول الكريم: (إن الصدقة أول ما تقع في يد الله عز وجل).

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟(٦٥).

والإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل، كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الانسان المؤمن، فالحرية النفسية والعقلية أساس المسؤلية كما عرفنا سابقاً والاسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها وهو يبنى صرح الأخلاق.

إن فطرة الإنسان خيرة وليس معنى هذا أنه ملاك لا يحسن إلا الخير بل معنى هذا أن الخير يتواءم مع طبيعته الأصلية. وأنه يؤثر اعتناقه والعمل به كما يؤثر الطير التحليق، إذ اتخلص من قيوده وأثقاله.

فالعمل الصحيح في نظر الإسلام هو تحطيم القيود وإزالة الأثقال ولن يصدر الإسلام حكما ويعزل هذا الإنسان عن المجتمع إلا يوم يكون بقاؤه فيه مثار شر على الآخرين.

وفي حدود هذه الدائرة يحارب الإسلام الجرائم الخلقية، فهو يفترض ابتداء أن الإنسان يحب أن يعيش من طريق شريف وأن يحيا على ثمرات كفاحه وجهده الخاص أى أنه لا يبني كيانه على السرقة.

فالجريمة تقع وزرها على المجتمع المفرط لا علي الفرد المضيع لذا يقول الرسول الكريم:

(إن الامام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقاب).

والحدود التى شرعها الإسلام تمثل وقاية للجماعة العادلة، والحدود على الجرائم الخلقية لم تشرع إكراهاً على الفضيلة وإلجاءً للناس بطريق القسوة إلى اتخاذ المسلك الحسن فهى عقوبة مقدرة واجبة حقاً لله تعالى قال رسول الله ﷺ: «أقيموا حدود الله في القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم»(٦٦).

فالطريقة المثلى لدى الإسلام هي خطاب القلب الإنساني، واستثارة أشواقه الكامنة إلى السمو والكمال، وإرجاعه إلى الله بارئه الأعلى بأسلوب من الاقتناع والمحبة وتعليقه بالفضائل الجليلة على أنها الثمرة الطبيعية لهذا كله.

ويجب التحكم في ظروف البيئة حتى تعين على إنضاج المواهب والسجايا الحسنة.

والإسلام يُحمل البيئة قسطاً كبيراً من تبعة الخير أو الشر وإشاعة الرذائل أو الفضائل.

من هنا يرى الإسلام أن ملاحظة البيئة وتقدير آثارها في تكوين الخلق يمثل عاملاً من عوامل حراسة الفطرة السليمة والفضيلة، وفي الحدود ضماناً لإيجاد مجتمع نقي يزخر بأزكى الصفات وأعف السّير(٦٧) فوجدنا حدود: السرقة، والردة، والزنا، والشرب، والقذف لها علاقة وطيدة بالأخلاق في الإسلام - يقول الرسول ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»(٦٨).

وفي حد الردة يقول رسول الله ﷺ «مَن بدل دينه فاقتلوه». وفي حد القذف يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ٢٣).

وفي حد الزنا يقول الله تعالى: ﴿زَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٣) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) ومثل ذلك كثير جداً في القرآن والسنة.

ب - ارتباط الأخلاق بالعبادات

للعبادة في الإسلام وفي كل دين الشأن الأول بين الفرائض والواجبات؛ لأنها تؤكد إقرار المرء إقراراً كاملاً بقلبه وجوارحه وخضوعه خضوعاً، مطلقا يطغى علي كل خضوع لله الخالق الباقى.

لذلك نجد القرآن يحدد الغاية للخلق هي العبادة.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

والدعوة إلى عبادة الله دعوة الأنبياء جميعاً ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (النحل: ٣٦).

واذا كانت العبادة هي غاية الوجود الإنساني فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذى يجعلها محصورة في أنواع الشعائر المعروفة. بل يتعداه إلى كل عمل يعمله الإنسان يبتغى منه إرضاء الله وهذا هو المعنى العام للعبادة.

أما المعنى الخاص فهي تلك الفرائض التي وجبت على المسلم في الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج. ولكنهم في الحقيقة فرائض دينية يراد بها صلاح الفرد والجماعة معاً.

وهذه العبادات ليست طقوساً مبهمة كالتى تربط الإنسان بالغيوب المجهولة، وتكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها؛ كلا فالفرائض التى ألزمنا بها الإسلام هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق.

وقد أشار الأستاذ محمد أبو زهرة إلى أن العبادات تنتهي إلى نتيجتين وهما : -

أولاهما : الاتجاه إلى تربية الوجدان الديني الذى يجعل المؤمن بالإسلام مؤتلفاً مع غيره ليتكون من هذا الائتلاف مجتمعاً إنسانياً تسوده المودة والمحبة.

ثانيهما : إن غاية العبادات في الإسلام تحقيق النفع الانساني العام وإيجاد المجتمع المتآخي المتحاب وعلامة الإخلاص لله فيها أن تكون مطهرة للقلب قاضية على الشر مؤلفة بين الناس من غير مراءاة ولا مغالاة(٦٩).

ومن أهم ما تمتاز به العبادات في الإسلام أنها خالصة لله وحده وصلة مباشرة بين العبد وربه لا يحتاج فيها إلى واسطة.

ويمثلها بصورة واضحة دخول المصلى محرابه للصلاة فهو يدخل على الله دون إذن من أحد دون ترجمان، وهي تجمع بين حضور القلب، وتوجه الجوارح لما في الإنسان من فطرة مزدوجة ماديه وروحية، وهي لأنها تعبير عن الخضوع لله ومظهر له - توقيفية تؤدى كما وردت في الشريعة دون زيادة أو نقصان.

وتسبق الصلاة بالوضوء الذي هو طهارة للجسم، بجانب كونه طهارة للقلب. وقد شُرعت صلاة الجماعة لتحقيق الاتحاد والمحبة والإخاء بين المسلمين.

والمساواة في العبادة(٧٠). كما أن الصلاة بجانب ذلك كله تهدف إلى النهى عن الفحشاء ومحاربة الرذيلة يقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) ويقول الرسول ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلا بُعداً»(٧١).

كذلك عبادة «الصوم» تؤدى دورها في تربية الوجدان وتهذيب النفس وتحقيق الرياضة روحية وإكساب المسلم معنى المراقبة لله وخشيته والنظر إليه على أنه ليس مجرد حرمان من الأكل والشرب ولكن حرمان النفس من نزواتها وشهواتها وترويضها على الطاعة وتحمل المشقة في سبيل الله، والغاية الكبرى عن الصوم نيل التقوى.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وقال رسول الله ﷺ (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)(٧٢).

تلك هي أمثلة لبعض العبادات نتبين منها الأواصر التي تربط الدين بالأخلاق.

إنها عبادات متباينة في جوهرها ومظهرها ولكنها تلتقى عند الغاية التي رسمها الرسول ﷺ عن قوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

فجميع العبادات تدعو إلى تهذيب النفس وتنقية القلب والمساواة بين الناس وجمعهم على كلمة واحدة.

هوامش الفصل الرابع

١ - أصول الدعوة/ د. عبدالكريم زيدان / دار الوفاء / ص٩٠.

٢ - فلسفة التربية الإسلامية / د. عمر محمد التومى الشيباني / ص ٢٣١.

٣ - التربية الإسلامية / د. سليمان الحقيل / ص ٧٢.

٤ - التربية الإسلامية / د. محمد منير مرسى / ص ٦٥.

٥ - منهج التربية الإسلامية / ص ٢٠ - ٢٢.

٦ - أخرجه البخاري في بدأ الخلق - الفتح ٦ / ٢٥٤ ، وأحمد في مسنده (٢ / ١٥٩) ومسلم ٤ / ١٧٦٠ رقم ٢٢٤٢.

٧ - أخرجه الطبراني - الترغيب والترهيب ٣ / ٢٠١.

٨ - رواه أبو داود في كتاب الطب رقم ٢١٩ والترمذي في كتاب البر رقم ١٦ ، وأحمد جـ٤ ص ١٨,١٧.

٩ - رواه البخاري ومالك في الموطأ وأبو داود جامع الأصول ٤ / ٥٢٣.

١٠ - التربية في الاسلام / د. عدنان النحوى / ص ١٨٥ ، ١٨٦.

١١ - أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبى ذر حسن صحيح.

١٢ - أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو ٢ / ١٧٧ ، ٢٢٠.

١٣ - أسس التربية / د. إبراهيم ناصر ط٥ / دار عمار ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م/ ص ٢٦٩.

١٤ - رواه ابن أبي حاتم.

١٤٨١٤٨١٤٨١٤٨١٤٨١٤٨١٤٨----١٤٨١٤٨١٤٨١٤٨١٤٨١٤٨١٤٨ - ٣٠ - عناصر القوة في الإسلام / السيد سابت / دار الكتاب العربي/ ص ٤٩,٤٨.

٣١ - فلسفة التربية الإلامية / ص ٢٥٨.

٣٢ - المرجع السابق.

٣٣ - أخرجه مسلم في أول كتاب الإيمان جـ١ ص ١٥٧ - ١٦٠ باب سؤال جبريل، وابن حجر في فتح البارى على شرح صحيح البخاري في كتاب الإيمانجـ١ ص ١١٥ - ١٢٥.

٣٤ - دراسات في النفس الإنسانية / محمد قطب / ١٩٧٢م ص ١٢٠ - ١٢٤.

٣٥ - مجلة الوعى الإسلامي العدد (١٠٧) محمد البهى / سنة ١٩٧٣م/ ص ١٠، ١٦.

٣٦ - فلسفة التربية الإسلامية / الشيباني / ص ٢٦٤، ٢٦٥.

٣٧ - المرجع السابق، ص ٢٦٢ - ٢٦٨.

٣٨ - أخرجه البخاريرقم ١ و ٥٤ و ٢٣٩٢ ومواضع أخرى، ومسلم في الإمارة، رقم ١٥٥ (١٩٠٧).

٣٩ - أخرجه مسلم في البر والصله ج ١٥.

٤٠ - مقدمة في علم الأخلاق / ص ٤٠ - ٤٦.

٤١ - دستور الأخلاق في القرآن / ص ١٣٧.

٤٢ - مقدمة في علم الأخلاق / ص ٣٨، ٣٩.

٤٣ - أخرجه البخاري رقم: ٨٥٣.

٤٤ - فلسفة التربية الإسلامية / الشيباني / ص ٢٦٨، ٢٦٩.

٤٥ -

٤٦ - التربية في الإسلام / النحوي / ص ١٥٢.

٤٧ - دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٤٢.

٤٨ - مختصر صحيح مسلم للألباني ص ١٥ حديث ٢٧ .

٤٩ - الإنسان في القرآن / عباس محمود العقاد / دار الكتاب العربي / ١٩٦٩م بيروت ص ١٥ - ٢١ .

٥٠ - أساس الشعور بالمسؤولية في دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام / د. محمد عبدالله دراز / القاهرة / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / ١٩٦٦ / ص ٢٨٧ .

٥١ - فلسفة التربية الإسلامية / ص ٢٧٦ .

٥٢ - دستور الأخلاق في القرآن / ص ١٨١ .

٥٣ - مقدمة في علم الأخلاق / ٤٢ ، ٤٣ .

٥٤ - فلسفة التربية الإسلامية / ص ٢٧٦ .

٥٥ - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب رحمته ﷺ وتواضعه جـ٤ ص ١٨٠٩ .

٥٦ -

٥٧ - رواه أحمد في مسنده ٣ / ١٣٥ ، ١٤٥ ، ٢٠١ ، ٢٥١ حديث صحيح وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦ - ١٢٣ .

٥٨ - سبق ذكره .

٥٩ - أخرجه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس بإسناد جيد .

٦٠ - سبق ذكره .

٦١ - فلسفة التربية الإسلامية / ص ٢٢٦ .

٦٢ - سبق ذكره أخرجه الترمذي والبيهقي وأحمد .

٦٣ - أخرجه مسلم ١ / ٦٥ ح ٣٨ في الإيمان باب ٢١٣ وأحمد في مسنده ٣ / ٤١٣ .

٦٤ - زخـــرجـــه مـــسلم ٤ / ١٩٩٠ ح ٢٥٦٩ في البـــر والصلة باب ١٣ ٤ / ٣٨٥ .

٦٥ - الترغيب والترهيب للحافظ المنذري جـ٣ ص ٢٤١ وأخرجه ابن ماجه .

٦٦ - خلق المسلم، ص ٢٨ - ٣٠ .

٦٧ - مختصر صحيح مسلم للألباني ص ١٨ / رقم ٤٣ .

٦٨ - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام / محمد أبو زهرة / ص ٩٦، ٩٧ .

٦٩ - معالم الثقافة الإسلامية / ص ١٥١، ١٥٢ .

٧٠ - أخـرجـه ابن أبي حـاتم والطبـراني وابن مـردويه عن ابن عـباس - الجـامع الكبير - ١ / ٨٣٣ .

٧١ - أخرجـه أبو داود في كتـاب الصـوم باب : الغيبـة للصـائم ٢ / ٧٦٧ رقم ٣٣٦٢ والترمذي ٣ / ٨٧ رقم ٧٠٧ .

٧٢ - رواه أحمد في مسنده ٢ / ٣٨١ عن أبى هريرة والبزار .

الفصل الخامس

الأخـــلاق الإســـلامية

في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

الخلق الكريم هو الهدف الأساسي والرئيسي لرسالة الإسلام، والقرآن الكريم حافل بآيات كثيرة تدعو إلى مكارم الأخلاق وتبين أن الهدف الأصيل من استخلاف الله للناس في الأرض إنما هو عمارتها بالخير والحق مصداقا لقوله تعالي ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾. «الحج / ٤١».

والخلق محصلة العبادات في الإسلام وهو أثقل ما في ميزان العبد يوم القيامة.

إن المتأمل في سنة رسول الله ﷺ وفي سيرته الشريفة يرى معالم منهج تربوي متكامل. منهج يهدف أساسا إلى إيجاد الشخصية الفاضلة والمجتمع الفاضل.

ونحن هنا في هذا الكتاب نلفت أنظار المنصفين إلى أساليب التربية الناجحة، والأخلاق الرائعة التي جاء بها صاحب الرسالة الخاتمة، ونقل بها العالم من الغى إلى الرشاد، وسوف يرون أن في الإسلام كنوزاً حافلة بالنفائس.

ونعرض في الصفحات التالية لبعض الأخلاق الاسلامية من خلال ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رغبة في اقتفاء أثر الرسول وأثر الصحابة والاقتداد بهم في حياتنا اليومية كيما تصبح تلك الأخلاق سجية في حياة المسلمين وواقعا حيا في مسلكهم.

الخلق الأول : خلق العدل

المسلم يرى أن العدل بمعناه العام من أوجب الواجبات وألزمها ، إذ هو أمر الله تعالى يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (النحل : ٩٠) . وأخبر تعالى أنه يحب أهل العدل في قوله : ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : ٨) والإقساط هو العدل .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (الأنعام : ١٥٢) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .

ونصوص القرآن في العدل كثيرة لا نستطيع أن نحصيها في هذا المقام . فالمسلم ينبغي أن يعدل في أقواله وأفعاله وأحكامه ويتحرى العدل في كل شأنه حتي يكون العدل خلقاً له ووصفاً لا ينفك عنه . فلا تجرفه شهوة أو دنيا والعدل هو إعطاء كل ذى حقاقحه من غير تحيز أو محاباة أو تفرقة أو تدخل لهوى نفسى وعكسه الجور والظلم .

ويكفى أن الله يحب المقسطين وقد أخبر الرسول عن كرامتهم عند ربهم بقوله :

(إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن – عز وجل – وكلتا يديه يمين – الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا)(١) .

وفي حديث الذي يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم (الإمام العادل)(٢).

والعدل هو القيمة العملية التى أقرها الإسلام للقيم والفضائل من الأعمال. فالإسلام عظم علاقة الفرد بالمجتمع. وتلك العلاقة هي الميزان الصحيح لسلوك المسلم وذلك على أساس العدل.

والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذى يؤخذ به للضعيف من القوى والحق من المبطل. وعدل المالك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه. وأفضل الأزمنة ثواباً أيام العدل. روى عن أبي نعيم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لعمل الإمام العادل في رعيته يوماً واحداً أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام وخمسين عاماً) وروى عن النبي ﷺ أنه قال: (عدل ساعة خير من عبادة سبعين ساعة). وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لكعب الأحبار:

أخبرني عن جنة عدن، قال يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبى أو صديق أو شهيد أو إمام عادل فقال عمر: والله ما أنا نبي. وقد صدقت رسول الله. وأما الإمام العادل، فإني أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأنّي لي بها. قال الحسن: فجعله الله صديقاً وشهيداً وحَكَماً عدلاً).

ويقال: عدل السلطان من أنفع من خصب الزمان.

وقد كتب بعض عمال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله ما لا يرمها به فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي فحصن مدينتك بالعدل، ونق طرقها من الظلم فإنه مرمتها والسلام).

وقد وقف يهودي لعبدالملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمني فأنصفني منه وأذقني حلاوة العدل، فأعرض عنه، فوقف ثانياً فلم يلتفت إليه، فوقف ثالثة، وقال يا أمير المؤمنين إنا نجد في التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، إن الامام لا يكون شريكاً في ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزله، فقد شاركه في الظلم والجور، فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلى من ظلمه فعزله وأخذ لليهودي حقه منه(٣).

وقد حرص الخلفاء في الصدر الأول حتى القرن الثالث على الجلوس لرد المظالم والسماع لشكوى الرعية والفصل بين الناس بالعدل. ومن هنا رضي المسلمون واطمأنوا على حياتهم وانصرفوا إلى أعمالهم، فلما ضعف الخلفاء وبقي أمر العدل في يد القضاه فقط ساروا في أحكامهم على سنة الشرع وظلت الدولة الإسلامية عزيزة الجانب بالتزام القضاة العدل فعرفوا قيمته وحكموا بروحه.

إن العدل ليس نصوصاً مكتوبة أو آراء نظرية وإنما هو تطبيق عملي يحتاج إلى حكمة بالغة وتقدير دقيق ولذلك فإن قيمة العدل تعود إلى نوع الرجال الذين يتولون أمره(٤).

وللعدل مظاهر كثيرة منها:

١ - العدل مع الله تعالى بأنه لا يشرك معه أحد في عبادته وصفاته، وأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

٢ - العدل في الحكم بين الناس بإعطاء كل ذى حق حقه وما يستحقه.

٣ - العدل بين الزوجات والأولاد فلا يفضل أحداً على آخر ولا يؤثر بعضهم على بعض.

٤ - العدل في القول فلا يُشْهد زور ولا يُقال كذب أو باطل.

٥ - العدل في المعتقد فلا يعتقد غير الحق والصدق ولا يثني الصدر على غير ما هو الحقيقة والواقع(٥).

وقد قال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده.

وقيل: لما ولي عمر بن عبدالعزيز أخذ في رد المظالم فابتدأ بأهل بيته، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقا فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ فلما قضى الأمر إلى معاوية جره يميناً وشمالاً. وأيم الله لئن مدَّ في عمرى لأردنه إلى ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يوماً عصيباً فقال كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا أمننيه الله)(٦).

فينبغى للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضوان الله عليهم ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبى مرسل أو ملك مقرب ولو تتبعنا ما جاء في العدل والإنصاف وفضل الإمام العادل لوجدنا الكثير مما لايتسع المقام هذا.

ثمرة العدل :

١ - من ثمرات العدل في الحكم إشاعة الطمأنينة في النفوس.

٢ - الاعتدال وهو أعمّ من العدل. والاعتدال هو الطريق الوسط بين الإفراط والتفريط وهما الخُلقان الذميمان، فالإعتدال في العبادات أن تخلو من الغلو والتنطع والإهمال والتفريط، وفي النفقات بين الإسراف والتقتير.

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٧).

وفي اللباس بين الفخر والمباهاة ولباس الخشن وفي المشي وسط بين الاختيال والتكبر، وبين المسكنة والتذلل.

فالإسلام في جميع المجالات وسط لا إفراط ولا تفريط.

والاعتدال أخو الاستقامة وهو من أشرف الفضائل. وأسمى الخلائق إذ هي التي توقف صاحبها دون حدود الله فلا يتعداها، وتنهض به إلى الفرائض فلا يقصر في أدائها أو يفرط في جزء من أجزائها.

ويكفى أن نختم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأحقاف : ١٣، ١٤).

ويكفى أن العدل اسم من اسماء الله تعالى الحسنى.

والقرآن يطلق الحكم بالعدل بين الناس جميعاً فقال ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ .(النساء : ٥٨).

فهذه الصفة هي مشتركة يلتقى عليها البشر جميعاً مؤمنون وكفار، أصدقاء وأعداء، أسود وأبيض، أعرابي أو عجمي، والبشرية لم تعرف العدل إلا على يد المسلمين وفي ظل حكم الإسلام(٧).

وميزان العدل قد وضعه الله لقصور العقل عن إدراكه ونظراً لتأثره في بعض الأحيان بأي مؤثرات ولذلك كان وضع الله لميزان ثابت في القرآن بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء: ٥٩).

وقال: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (النساء: ١٠٥).

وهذه هي قصة المرأة المخزومية التي سرقت، وتشفع لها أسامة بن زيد، فغضب الرسول ﷺ وخطب: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(٨).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لعن الله من رأي مظلوماً فلم ينصره»(٩).

الخلق الثاني / خلق الإحسان

الإحسان (ضد الإساءة) وهو الإخلاص في العمل والإتيان به على أتم وجه دون فيه رياء أو سمعة.

والمسلم لا ينظر إلى الإحسان على أنه خلق فاضل يجمل التخلق به فحسب، بل ينظر إليه على أنه جزء من عقيدته وعامل مهم في إسلامه. إذ إن مراتب الدين ثلاث: وهي: الإيمان، والإسلام، والإحسان. يوضح ذلك سؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ عن الإيمان والاسلام والإحسان فقال في الحديث المشهور في تعريفه الإحسان: (أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(١٠) وقال عقب انصراف جبريل: هذا جبريل أتاكم ليعلمكم أمور دينكم، فسمَّى الثلاثة ديناً.

والله سبحانه وتعالى أمرنا بالإحسان في أكثر من موضع قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠) وقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة: ١٩٥). وقال: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾.

وقال رسول الله ﷺ: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)(١١).

والإحسان يختلف معناه وتتعدد صوره في باب العبادات والمعاملات:

أما في باب العبادات: فهو أن تؤدى العبادة أياً كان نوعها من صلاة وصيام وزكاة أو غيرها أداء صحيحاً باستكمال شروطها وأركانها واستيفاء

سننها وآدابها وهذا ما لايتم للعبد إلا إذا كان حال أدائه للعبادة. يستغرق في شعور قوى بمراقبة الله عز وجل حتى لكأنه يراه تعالى ويشاهده. أو على الأقل يشعر نفسه بأن الله مطلع عليه ناظر إليه، فبهذا وحده يمكنه أن يحسن عبادته وأن يتقنها فيأتى بها على الوجه المطلوب، والصورة الكاملة لها.

وهذا هو ماأرشد إليه الرسول الكريم ﷺ في تعريفه للإحسان كما سبق أن أشرنا.

وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة تفعل الطاعات وتنهى عن المعاصى وتراقب الله في السر والعلن.

أما في باب المعاملات: فيراد به المعاملة الحسنى لجميع الناس فمع الوالدين ببرهما وطاعتهما وإيصال الخير اليهما، وكف الأذى عنهما، والدعاء والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما الى غير ذلك من وجوه البر لهما(١٢).

وأما مع الأقارب فهو رحمتهم والعطف عليهم وفعل ما يجمل فعله معهم، وترك ما يسئ إليهم أو يقبح فعله معهم.

ومع اليتامى: بالعطف عليهم والرحمة بهم والمحافظة على أموالهم، وصيانة حقوقهم، أو رعايتهم وتأديبهم وتربيتهم وترك أذاهم وعدم قهرهم.

ومع المساكين: بسد جوعتهم وستر عورتهم والحث على إطعامهم والرفق بهم، وعدم المساس بكرامتهم فلا يُحتقرون ولا يُنالون بسوء أو يمسون بمكروه.

وهو كذلك لابن السبيل: بقضاء حاجته وصيانة كرامته وهدايته إن ضل.

وهو للخادم وصيانة بإعطائه أجره قبل أن يجف عرقه، والبعد عن تحميله بما لا يطيق، وصيانة كرامته، واحترام شخصيته وإطعامه وكسوته والتلطف والرحمة به وبأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وبكف الأذى عنه.

وهو أيضاً للحيوان: بإطعامه إن جاع ومداوته إن مرض، وعدم تكليفه ما لايطيق حمله، وبالرفق به وإراحته إن تعب(١٢).

وهو في الأعمال البدنية: بإجادة العمل وإتقان الصنعة، وأداء الأعمال بكل إتقان وأمانة دون غش أو خداع وإخلاص العمل لوجه الله دون رياء أو سمعه.

ومن مظاهر الإحسان في حياة الرسول والصحابة والتابعين منها: ما يحكى عن بعض السلف أنه غضب غضبا شديداً على غلام له - لخطأ ارتكبه - فهم بالانتقام منه فقال الغلام والكاظمين الغيظ، فقال الرجل: كظمت غيظي، فقال الغلام: والعافين عن الناس فقال: عفوت عنك فقال الغلام: والله يحب المحسنين فقالك اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

ولا يخفى على الكثيرين كيف كان حال رسول الله ﷺ مع أنس بن مالك رضي الله عنه فلم يقل له يوماً أف قط.

الخلق الثالث / خلق الرحمة

الرحمة خُلق فاضل يجعل المرء يرق لآلام الخلق ويسعى لإزالتها، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى، وهي كمال في الطبيعة لأن تبلد الحس يهوى

بالانسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه أفضل ما فيه وهو العاطفة الحية النابضة بالحياء والرأفة.

بل أن تلك العاطفة قد توجد عند بعض الحيواناتفي عطفها على ذراريها،. ومن ثم كانت القسوة ارتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهائم، بل إلى منزلة الجماد الذى لا يعي ولا يهتز.

وفوق ذلك كله يكفى أن الرحمة صفة المولى - سبحانه وتعالى - واسم من أسمائه.فهو سبحانه «الرحمن الرحيم» فإن رحمته وسعت الوجود بأسره وعمت الملكوت، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة(١٣). وهي رقة في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواس فهي مشاركة الكائن الحي لغيره في آلامه ومسراته ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (غافر / ٧).

والمسلم رحيم والرحمة خلق من أخلاقه، إذ منشأ الرحمة صفاء النفس وطهارة الروح، والمسلم بإتيانه الخير، وعمله الصالح، وابتعاده عن الشر، واحتسابه المفاسد هو في طهارة نفس وطيب روح، ومن كان هذا هو حاله فإن الرحمة لا تفارق قلبه، المسلم يوصى بها ويدعو إليها لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (البلد: ١٧). وعملاً بقوله ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)(١٤) وقوله (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)(١٥) وقاله (مَنْ لا يرحم لا يُرحم)(١٦) وقوله (لا تُنزع الرحمة إلا من شقى)(١٧).

وتحقيقاً لقوله ﷺ : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(١٨).

وروى عن عمر بن الخطاب : قُدِم علي رسول الله ﷺ بسبى فإذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبيا في السبى أخذته فألزمته ببطنها فأرضعته فقال رسول الله ﷺ : أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا : لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه ! قال : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها.

ومن رحمة الله بخلقه أن رحمته تسع كل شيء وتغلب غضبه ومن وافر رحمته بعباده أن أرسل إليهم نبياً واسع الرحمة والعاطفة. يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (التوبة: ١٢٨) وقال ﷺ «إنما أنا رحمة مهداة»(١٩).

والقسوة في قلب الإنسان دليل نقص كبير وفي تاريخ الأمة دليل فساد خطير.

والرحمة وإن كانت حقيقتها رقة للقلب وانعطاف النفس المقتضي للمغفرة والإحسان، فإنها لن تكون دائماً مجرد عاطفة نفسية لا أثر لها في الخارج، بل أنها ذات آثار خارجية ومظاهر حقيقية تتجسم فيها في عالم الشهادة.

ومن آثار الرحمة الخارجية: العفو عن ذى الزلة والمغفرة لصاحب الخطيئة، وإغاثة اللهفان، ومساعدة الضعيف، وإطعام الجائع، وكسوة العاري، ومداواة المريض ومواساة الحزين. كل هذه وغيرها من آثار الرحمة ومن ومظاهر هذه الرحمة كثيرة جداً في حياة رسولنا الكريم ﷺ وإلا فحياته كلها رحمة وعفو منها على سبيل المثال.

ما رواه البخاري عن أنس بن مالك أنه قال: (دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى يوسف القين وكان ظئرا لإبراهيم، فأخذ رسول الله إبراهيم ولده وقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذرفان، فقال له عبدالرحمن بن عوف وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف إنها الرحمة! ثم قال: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)(٢٠).

ولم تقتصر هذه الرحمة على الانسان بل شملت الحيوان فيشير النبي عليه السلام إلى تعذيب امرأة في هرة كانت قد حبستها حتى ماتت فدخلت بسبب ذلك النار. فأى رحمة هذه التي عمت حتى الحيوان.

وعكسه الرجل الذى غفرت له زلاته بسبب سقى الكلب في شدة الحر.

وقد أمر الإسلام بالتراحم في الأرض عامة وجعله من دلائل الإيمان الكامل.

وعلى المسلم أن يظهر بشاشة وجهه ومودته ورحمته لعامة من يلقى فقال الرسول الكريم: (من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء).

فالإسلام يوصى بالرحمة العامة الرحمة التى تسع الإنسان والحيوان والدواب والطيور وقد سبق أن أشرنا إلى بعض الآيات في ذلك السياق.

فالإسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبيا: ١٠٧).

ولأهمية الرحمة في الإسلام فقد صدرت بها كل سور القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾(٢١).

وقد تأخذ الرحمة شاكل القسوة ولكنها في الحقيقة ليست كذلك وذلك كمن يقسو على طفله لكى يتعلم وكالطبيب الذى يجرى جراحة بأى وسيلة رحمة بالمريض حتى يتم الشفاء.

فهى هنا وإن بدت القسوة في الظاهر فانها في الحقيقة رحمة كبيرة ومثل ذلك أيضاً القصاص الذى جعله الله رحمة وعدلاً بين الناس وإن بدا غير ذلك للناس ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩).

والرحمة التى يتراحم بها الخلق هي جزء واحد من مائة جزءٍ.

قال رسول الله ﷺ: (جعل الله الرحمة مائة جزء وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه).

وأولى الناس بالرحمة أولاً الوالدان يقول تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ (الاسراء: ٢٤).

ثم الأهل والأولاد. ثم الناس عامتهم وخاصة ذوى الحاجات الخاصة مثل اليتامى والمساكين والمرضى والخدم والحيوان.

لقول الرسول ﷺ : «أيما وال وَلي فَرفق وَلاَنْ رفق الله تعالى به يوم القيامة»(٢٢) وقال أيضاً : «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»(٢٣).

ولئن كانت الرحمة مطلوبة بالحيوان فكيف بالرحمة مع البشر وكيف تنزع الرحمة من إنسان لا يملك الرحمة.

الخلق الرابع / خلق الحياء

الحياء مشتق من الحياة لأن القلب الحي يكون صاحبه حياً، فان حياة القلب هي المانعة من القبائح التي قد تفسد القلب(٢٤).

قالت عائشة رضي الله عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء.

وقال علي بن أبي طالب: من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه، وعن زيد بن علي عن آبائه: من لم يستح فهو كافر. وقال أبو موسى الأشعرى: إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحنى فيه صلبى حياء من ربى. وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء.

ويقال كذلك: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله(٢٥). قال رسول الله ﷺ «الحياء كله خير»(٢٦).

والحياء من أبرز الصفات الأخلاقية، ومن العوامل القادرة على صيانة النفس وحفظها من السقوط والانحراف. ولقد قال العلماء في ذلك:

(حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق اذى الحق)(٢٤).

حدثنا شعبة عن قتادة قال: سمعت عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد الخدرى قال: (كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه)(٢٨).

والحياء من الإيمان والإيمان عقيدة المسلم وقوام حياته يقول الرسول ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)(٢٩).

ويقول عليه السلام (الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)(٣٠).

وسر كون الحياء من الإيمان أن كلامنهما داع إلى الخير وصارف عن الشر مبعد عنه. فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصي، والحياء يمنع صاحبه من التقصير في الشكر للمنعم، ومن التفريط في حق ذي الحق، كما يمنع الحَيّى من فعل القبيح أو قوله اتقاء للذم والملامة. ومن هنا كان الحياء خيراً، ولا يأتي إلا بالخير كما صح ذلك عن رسول الله في قوله (الحياء لا يأتي إلا بخير)(٣١).

والحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان، فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه. وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل مالا ينبغي أو ترى حُمرة الخجل تصبغ وجهه إذا ظهر منه ما لا يليق فاعلم أنه حيّ الضمير نقي المعدن، زكي العنصر. وإذا رأيت شخصا بليد الشعور، لا يبالي ما يأخذ أو يترك فهو امرؤ لا خير فيه، وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا(٣٢).

وقد أوصى الإسلام أبناءه بالحياء فقال رسول الله ﷺ (إن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء)(٣٣).

فكانت الصرامة ملحوظة في تعاليم اليهودية على عهد موسى عليه السلام، وكانت السماحة ملحوظة في المسيحية على عهد عيسى عليه السلام.

أما الإسلام فكان فيه الحياء.

فإذا فقد الإنسان حياءه وفقد أمانته أصبح وحشاً كاسراً ينطلق معربداً وراء شهواته من سوء إلى أسوأ حتى ينحدر الى الدرك الأسفل.

ونقيض الحياء البذاء، والبذاء فحش في القول والفعل وجفاء في الكلم قال رسول الله ﷺ «ما كان الحياء في شيء إلا زانه، ولا كان الفحش في شيء إلا شانه»(٣٤).

وخلق الحياء لا يمنع المسلم من أن يقول الحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أو يطلب علماً. فقد شفع مرة عند رسول الله أسامة بن زيد حِب رسول الله وابن حبه فلم يمنع الحياء رسول الله أن يقول لأسامة في غضب: (أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها).

ولم يمنع الحياء أم سليم الأنصارية أن تقول يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ فيقول لها الرسول ولم يمنعه الحياء - «نعم إذا رأت الماء»(٣٥).

والحياء لا يعني فقط ستر العورة وعدم التقصير في واجب، وعدم إنكار معروف وعدم يخاطب الناس بسوء ولا يجابههم بمكروه بل يستحي من

الخالق فلا يقصر في طاعته، ولا في شكر نعمته متمثلاً في قول الرسول الكريم: (فالله أحق أن يستحيا منه من الناس)(٣٦).

وما ورد عن ابن مسعود قال رسول الله (استحيوا من الله حق الحياء قلنا: يا نبى الله إنا لنستحي والحمد لله - قال: ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى. وتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى: فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء)(٣٧).

فهذا الحديث يدعونا أن نشكر نعم الله علينا فالإنسان بإزاء النعمة الصغيرة من مثله يخزى أن يقدم الى صاحبها إساءة، فكيف لا يستجى الناس من الاساءة إلى ربهم صاحب هذه النعم الكثيرة التى لا تحصى. وهذا الحديث أيضاً يدعونا أن نتمثل آداب الإسلام، ومناهج الفضيلة، فعلى المسلم تنزيه لسانهن عن الخوض في باطل، وبصره أن ينظر إلى عورة، وأذنه أن تسترق سراً أو تستكشف خبئاً، وأن يفطم بطنه عن الحرام، ثم عليه أن يصرف أوقاته في مرضاه الله وابتغاء ثوابه.

فإن فعل ذلك كله فقد استحيا من الله حق الحياء. وبناء على هذا يكون الحياء هو الدين كله(٣٨).

- وللحياء مواضع أخرى منها:

الحياء في الكلام - بمعنى أن يطهر المسلم فمه من الكلام الفحش أو ذكر عورات الناس وقال تعالى: ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

مَعْرُوفٍ.. ﴾ (النساء: ١١٤). وقال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ»(٣٩).

وأن يقتصد المسلم في حديثه في المجالس دون الثرثرة، التى لا تخلص من الرياء. قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٤٠).

ومن الحياء أن يخجل الانسان من أن يؤثر عنه سوء، وأن يحرص على بقاء سمعته طيبة.

- ليس في الحياء جبنا ولا تخوف وتلك هي الشجاعة في أعلى صورها.

وأن هناك فرقاً بين الحياء والخجل، فالخجل يقع في الخير والشر وقد يؤدى إلى ورطات سيئة. أما الحياء فلا يكون إلا في الحدود المشروعة فالحياء لا يكون تجاه الباطل، ولا موضع له مع الناس إذا ضلوا، ولا موضع له في السلوك عندما يقف المرء موقفا يناصر فيه الحق قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ «الأحزاب: ٥٣».

الخلق الخامس / خلق العفة

تضمن الإسلام طائفة من الإرشادات المتصلة بحياة المسلمين الخاصة.

قصد بها إلى تنظيم شؤونهم البدنية والنفسية، ووضعها على أساس كريم، وهي آداب تتعلق بالملبس والمسكن والمشرب، لا يجنح بها إلى الرهبانية المغرقة ولا إلى المادية الجشعة، فهي تقوم على التوسط والاعتدال ومن ثم فتنفيذها سهل قريب.

إن الإسلام يقرن بين مطالب الجسم والنفس في تعاليمه، ويكف طغيان أحدهما على الآخر، ويرى في تنسيق حاجاتهما عوناً للمرء على أداء رسالته في هذه الحياة وما بعدها. والفلسفات التي نبتت في الأرض والتى اصطنعها الناس ليحيوا في نطاقها عندما غابت عنهم هدايات السماء، قلما نجحت في التوفيق بين ضرورات البدن وأشواق الروح، وبين الآخرة التي سنصير إليها ورعاية الدنيا التي بدأنا المسير منها..

فبعضها رأى ان الروح لابد لها أن تفلت من قيود الجسم. وبعضهم أطلق العنان للملذات ودار في حدودها أما الإسلام فلن تجد فيه الرهبانية التى يضيق الناس بها ذرعاً ولن تجد فيه الحيوانية القائمة على عبث الشهوات ومطاوعة الأهواء(٤١).

ولقد جمع النبي ﷺ بين العفه والغنى في عدة أحاديث منها قوله ﷺ :

(ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله ومن يصبر يصبره الله..)(٤٢) ومنها أيضاً قوله عليه السلام: (أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان

مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»(٤٣)

وقوله (من طلب المال استغناءا عن الناس و استعفافاً عن المسألة لقى الله ووجهه كالقمر ليلة الدر)(٤٣).

وقال تعالى في حق الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

وقال ﷺ (ليس الغنى من كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس)(٤٥)

وأكثر الذين يفقدون عفتهم ويتبعون نزواتهم ويعيشون للمتع وحدها. هم يعيشون للدنيا فقط يقول الله تعالى ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٢).

ويروى أن عمر بن أبى ربيعة كان عفيفاً يصف ويعف .

وروى أن عبدالله بن عبد المطلب والد النبي قد دعته بَغِيٌّ إلى نفسها وبذلت له مالاً وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله وكانت جميلة، فأرادت أن تخدع عبدالله رجاء أن يكون النبى منها للنور الذى رأته بين عينيه فأبى وقال:

أما الحرام فالحِمامُ دونه ... والحل لا تأبى وتستدينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمى الكريم عرضه ودينه

والعفة كما تكون في الأهواء الشخصية تكون كذلك في الماديات فيأمرنا الله بالإنفاق بعيداً عن الهوى والرياء وإنما ابتغاء وجه الله وخاصة إعطاء المسألة لمن لا يسألها، يقول الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ .

فهذه صورة عفة كريمة نبيلة لطائفة من المؤمنين صورة تستجيش المشاعر وتحرك القلوب لإدراك نفوس أبية تأبى المسألة من دون الله(٤٧) .

وهذا هو ما يصنعه الإسلام بنظامه المتكامل النظيف العفيف الذى يصل الأرض بالمساء ويرفع البشرية إلى الأفق المشرق الوضئ المستمد من نور الله.

هذا هو التعفف وقد رباه الاسلام في نفوس أهله فإذا بأحدهم يتحرج أن يسأل وله أقل ما يكفيه في حياته.

فقد روى البخاري عن عطاء بن يسار وعبدالرحمن بن أبي عمرة قالا: سمعنا أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ: (ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى يتعفف). اقرأوا إن شئتم يعنى قوله: (لا يسألون الناس إلحافاً)(٤٨) .

فالإسلام نظام متكامل تعمل نصوصه وتوجيهاته وشرائعه كلها متحدة، ولا يؤخذ أجزاء وهو يضع نظمه لتعمل كلها في وقت واحد، فتتكامل وتتناسق. وهكذا نشأ مجتمعه الفريد الذى لم تعرف له البشرية - نظيراً في مجتمعات الأرض(٤٨) .

- وبناء على هذا يوصى الاسلام المرء ألا يكون عبداً لبطنه يعيش في

الدنيا ليأكل ألوان الطعام حيث حذر الرسول من ذلك فقال: «أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً من الدنيا»(٤٩).

وعرفنا أن عدداً كبيراً من الأمراض والعلل تنشأ من كثرة الطعام. فقال الرسول ﷺ: «إن المؤمن يشرب في معى واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء»(٥٠). ولذلك أمرنا الاسلام بالإعتدال في الطعام وهذا لا يعنى أن الإسلام يحرم علينا ما أحله الله تعالى. من الاستمتاع بمتع الحياة ولكن مع عدم الإسراف فيها فقد رأينا كيف كان كرم أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام مع ضيوفه، فقد بادر بذبح عجل سمين وقدمه اليهم بدون استفسار عنهم «فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون» (الذاريات: ٢٥، ٢٦) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (المائدة: ٨٧)

كما دلت التجارب أن الإكثار من الطعام يضر بالجسم. قال رسول الله ﷺ: صوموا تصحوا»،(٥١) والاسلام يوصى كذلك بالإعتدال في الملبس فلا يباهى بها أو يختال فيها، فرب امرئ لا تساوى ثيابه درهما ترجح نفسه بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. قال رسول الله ﷺ (رب أشعث أغبر ذى طمرين، لو أقسم علي الله لأبره)(٥٢).

لذا فانه لا ينبغى أن يعيش المرء للترف متناسيا أولويات حياته لا سيما التفقه في الدين والشعور بقضايا المسلمين وهمومهم وغير ذلك من متطلبات تحقيق الغاية من الخلق وهى العبودية الكاملة لله تعالى.

وقد وندد الاسلام بمسلك التنعم الذى يصرف المسلم عن دوره ونّفر منه

فقال رسول الله ﷺ : (من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة، وألهب فيه ناراً)(٥٣).

وروى عن جابر وقال : (حضرنا عُرس على وفاطمة فما رأينا عرساً كان أحسن منه. حشونا الفراش يعنى من الليف، وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا وكان فراشها ليلة عرسها إهاب كبش)(٥٤).

ولا يعنى هذا ان الدين الاسلامي يدعو إلى لبس المرقعات وارتداء الخشن من الثياب كما يفعل البعض من الناس أو يشدد الانسان على نفسه ويحرم نفسه من طيبات أحلت له. ولكن يأخذ من ذلك بقدر حاجته وضرورته بدون زيادة وإسراف، وتلك هي الوسطية في الاسلام.

فهذا رجل جاء إلى رسول الله ﷺ وعليه ثوب دون فقال له : ألك مال؟ قال نعم، قال : من أى المال؟ قال من كل المال قد أعطاني الله تعالى قال : (فإذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته)(٥٧).

وقال ايضاً : (ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة غير ثوب مهنته)(٥٨).

فالإسلام يحب التجمل وحسن المظهر وحسن السمت وألا يتأفف منه الناس.

فالاسلام ينبذ التكلف والمبالغة في كل شيء ولهذا كان تحريم الاسلام لأوانى الذهب والفضة ومفارش الحرير والديباج، لأن ذلك يفعل عادة مفاخرة ومباهاه أمام الناس، فالتوسط لب الفضيلة والتوسط هنا أن تملك

الحياة لتسخرها في بلوغ العلياولا تملك الحياة فتسخرك لدناياها، ولا أن تحرم من الحياة فتقعد ملوماً محسوراً ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ (غافر / ٧٥).

٦ - خلق الصدق(١)

وخلق الصدق : نقيض الكذب وهو الاخبار عن الشيء على ماهو عليه وقيل هو استواء السر والعلانية وأصل هام من أصول الأخلاق الاسلامية والتى تحتاج الى جهد لتركيزها وتثبيتها. والله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض بالحق، وطلب الي الناس أن يبنوا حياتهم على الحق، فلا يقولوا إلا الحق ولا يعملوا إلا الحق. وحيرة البشر وشقوتهم ترجع إلى ذهولهم عن هذا الأصل الواضح، وإلى تسلط أكاذيب وأوهام على أنفسهم وأفكارهم، أبعدتهم عن الصراط المستقيم، وشردت بهم عن الحقائق التي لابد من التزامها. ومن هنا كان الاستمساك بالصدق في كل شأن، وتحرية في كل قول وعمل، وهي ركيزة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه ظاهراً وباطناً، إذ الصدق يهدى الى البر، والبر يهدى الى الجنة، والجنة أسمى غايات المسلم وأقصى أمانيه، والكذب خلاف الصدق وضده يهدى الى الفجور، والفجور يهدى الى النار، والنار من شر ما يخافه المسلم ويتقيه.

والمسلم لا ينظر إلى الصدق بوصفه خلقاً فاضلاً يجب التخلق به فقط، بل هو من مكملات إيمانه، وإسلامه، إذْ أمر الله به، وأثنى على المتصفين به كما أمر رسوله ﷺ، وحث عليه ودعا إليه أيضاً من ذلك قوله تعالى: ﴿ يا

أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (التوبة: ١١٩)،﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٣٣).

وقال ﷺ: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى الى البر، وإن البر يهدى الى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتي يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى الى الفجور وإن الفجور يهدى الى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)(٥٧).

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك. وقال الشاعر:

عليك بالصدق ولو أنه ... أحرقك الصدق بنار الوعيد

وأبغ رضا المولى فأغنى الورى ... من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به.

والصدق ينجى صاحبه فهذا هو الحجاج خطب يوماً فأطال. فقام رجل فقال: الصلاة، فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك. فأمر بحبسه، فأتاه قومه زعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلى سبيله فقال: إن أقر بالجنون خليته فقيل له فقال: معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلانى وقد عافاني فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه.

ومن ثم فقد حذر الرسول من الظن فقال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)(٥٨).

وقال: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينه، والكذب ريبة)(٥٩).

وقال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ «النجم / ٢٣».

وقال: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ «النجم / ٢٨».

وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة صدق الحديث ودقة الأداء وضبط الكلام. أما الكذب والإخلاف والتدليس والإفتراء فهي أمارات النفاق والكذب(٦٠).

فعن عائشة قالت: (ما كان من خلق أبغض الى رسول الله من الكذب، ما اطلع على أحد من ذلك بشيء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة)(٦١).

- هذا وللصدق مظاهر عديدة نذكر منها:

(أ) الصدق مع النفس:

أو صدق العزم فالمسلم إذا عزم على فعل ما ينبغي فعله لا يتردد في ذلك بل يمضي في عمله غير ملتفت الى شيء أو مبال بآخر حتى ينجز عمله، فبعض الناس إذا جُند للجهاد المفروض تقدم إليه وجلده مقشعر، وإن استخرجت منه الزكاة المفروضة أخذ يعدها وأصابعه ترتعش وهذا ليست من طبائع المؤمن قال رسول الله ﷺ: (يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب)(٦٢).

وسئل رسول الله ﷺ : (أيكون المؤمن جباناً) . قال نعم : قيل أيكون من المؤمن بخيلا؟ قال نعم ! قيل له : أيكون المؤمن كذاباً؟ فال لا . . .)(٦٣) وهذا الحديث يشير الى بعض نوازع الضعف والنقص التي تخامر بعض الناس، ثم يتغلبون عليها عندما يواجهون بالفريضة قال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٢٣) .

(ب) صدق الحديث :

فالمسلم إذا حدث لا يحدث بغير الحق والصدق يقول الرسول الكريم ﷺ :

(آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان) .

ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ (سورة الأحزاب: ٧٠) .

(ج) صدق الوعد:

فالمسلم إذا عزم وأوعد أحداً أنجز وعده، وإذا أخلف هذا الوعد كان متسما بآية من آيات النفاق كما سبق في الحديث الشريف .

ومن تلك الوعود الوعد مع الأطفال فالإسلام يوصى بالصدق مع الأطفال حتى يشبوا عليها وقد ألفوها في أقوالهم وأحوالهم كلها . فعن عبدالله بن عامر قال : (دعتنى أمى يوماً ورسول الله قاعد في بيتنا فقالت : تعال أعطك : فقال لها الرسول (ما أردت أن تعطيه؟ قالت أردت أن أعطيه تمرا فقال لها : (أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة)(٦٤) .

فقد كان الرسول يقدس الكلمة التى يقولها، ويحترم الكلمة التى يسمعها، وكان ذلك شارة الرجولة الكاملة فيه عليه السلام فروى أنه وعد جابر بن عبدالله بعطاء من مال البحرين، ثم عاجلته الوفاة قبل الوفاء فلما جاء مال البحرين الى خليفته أبى بكر أطلق منادياً في الناس يقول: ألا من كان له على رسول الله عدة أو دين فليأتنا)(٦٥).

فالوعود الكاذبة خرق للمصالح، وإضرار بالناس معه فالصدق قرين الإخلاص، ولا عوج فيه لأنه نبع من الحق.

فالصدق صفة الأنبياء والمرسلين والصالحين كما أوضح ذلك القرآن الكريم في آياته الكريمة في أكثر من موضع فيها ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٤١). وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤).

فمن ذلك ما رواه الإمام البخاري أنه خرج يطلب الحديث من رجل فرآه قد هربت فرسه، وهو يشير إليها برداء كأن فيه شعيراً فجاءته فأخذها، فقال البخارى أكان معك شعير،؟ فقال الرجل: لا ولكن أوهمتها فقال البخارى: لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم فكان هذا مثلاً عالياً في مجرى الصدق(٢).

د - صدق المعاملة:

فالمسلم إذا عامل أحداً صدقه فلا يغش ولا يخدع ولا يزور، فالصدق في الأقوال يفضى بصاحبه إلي الصدق في الأعمال والصلاح في الأحوال قال

تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١).

وفي مقابل الصدق «الكذب» وله مظاهر عدة منها:

١ - الكذب في الأعتقاد يقول ﷺ: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

٢ - الكذب من الحكام على الشعوب. ففي الحديث (ثلاثة لا يدخلون الجنة: الشيخ الزانى والامام الكذاب، والعائل المزهو) أي الفقير المتكبر.

٣ - الكذب على الأطفال كما ذكرنافي حديث عبدالله بن عامر

٤ - الكذب في مجال اللهو والمزاح لقول الرسول (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»(٦٦).

لأنه غالبا قد يؤدى في النهاية إلى عداوة وأحزان.

٥ - اتخاذ الكذب وسيلة للاطرء والمبالغة في المدح قال رسول الله ﷺ: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عَبْدٌ فقولوا: عبدالله ورسوله)(٦٧).

٦ - الوعود الكاذبة وإخلاف الوعد.

٧ - الخداع والكذب في التجارة والغش فيه.

٨ - الكذب في أداء الشهادة وفي الشورى، فخطره يكون على العامة شديداً مبيداً.

ومجال الصدق والكذب كثير لا مجال لحصره فالصدق والإخلاص هما في الحقيقة تحقيق الإيمان والاسلام، ولهذا إذا ذكر الله حقيقة نعتها بالصدق(٦٨) ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات: ١٤) هذا هو الصدق المحمود أما الصدق المذموم فيكون في الغيبة والنميمة.

هذا وللصدق ثمرات طيبة نجمل بعضها فيما يلي:

١ - راحة الضمير وطمأنينة النفس، لقول الرسول: (الصدق طمأنينة)(٦٩).

٢ - البركة في الكسب، وزيادة الخير لقول الرسول (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)(٧٠).

٣ - الفوز بمنزلة الشهداء لقول الرسول ﷺ: (من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)(٧١).

٤ - النجاة من المكروه والكذب قد يكون في بعض الحالات سائغاً إذا ترتب على الصدق آنذاك مفاسد كالكذب لنصرة الدين وفي الإصلاح بين الناس وفي حديث المرأة لزوجها. أو لنصرة نفسه من مكروه، وهي من باب التورية الجائزة شرعاً.

٧ - الأمانة

الأمانة لغة ضد الخيانة وشرعاً هي كتمان السر وإخلاص المشورة للمستشير وصدق التبليغ فيما كلف به الفرد، الأمانة خلق أصيل اتصف

به سيدنا محمد ﷺ من عهد الطفولة الى عهد الرسالة حتى وصفه المشركون بـ الصادق الأمين». والاسلام نظير للمسلم على أنه تصان به حقوق الله تعالى وحقوق الناس وتحرس به الأعمال من دواعي التفريط والإهمال.

والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، وهي ترمز الى معان شتى مناطها جميعها شعور، المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه، على النحو الذى فصله الحديث.

فالأمانة مرتبطة في معناها بالأخلاق الأخرى مثل الصدق، والصبر، والشجاعة والعفة، والوفاء.

يقول الرسول الكريم: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله راع ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولية عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته(٧٢).

أما العوام فيقصرون الأمانة على حفظ الودائع مع أن حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل.

إنها الفريضة التى يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله في حفظها حتي انه عندما يكون أحدهم على أهبة السفر يقول له أخوه: (استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك).

وعن أنس قال رضي الله عنه: (ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)(٧٣).

وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على هذا المنهج وعلى حفظ الأسرار

فروى عن أنس أنه تأخر على أمه ذات يوم فقالت: ما أبطأك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ في حاجة قالت: ما هو؟ قلت إنها سر، فقالت المؤمنة الواعية، الذكية، البصيرة، لتعطى درساً للأمهات في تعليم الطفل حفظ الأسرار، قالت له لا تخبرن بسر رسول الله أحداً.

ونلحظ اهتمام الرسول بخلق الأمانة وتأصيله في نفوس المسلمين حيث عاقب طفلاً وشد أذنه عندما أخل بخلق الأمانة فيما روى عن عبدالله بن بُسر الصحابي قال: بعثتني أمي إلى رسول الله ﷺ بقطف من عنب فأكلت منه قبل أن أبلغه إياه فلما جئت به أخذ بأذني وقال: «ياغُدَر غُدَرُ»(٧٤) فهذا توجيه من النبي ﷺ بأسلوب عتاب رقيق في شكل مداعبة، وتكرير ذلك من الرسول على سبيل التذكير والتفهيم حتى يدرك الصغير أنه أرتكب خطأ فيتبنه(٧٥).

والأمانة هو الدين والطاعة والفرائض والحدود إن قام بها الإنسان أثيب وإن تركها عوقب كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ « الأحزاب: ٧٢).

والأمانة هي خلق الأنبياء جميعاً والصالحين فقد كانت هذه الصفة ملازمة للأنبياء قبل نبوتهم والرسول عليه الصلاة والسلام كما نعرف سمى بالصادق الأمين قبل أن يرسل وكذلك موسى عليه السلام قبل أن يرسل حين سقى لأبنتى الرجل الصالح كان معهما عفيفاً أميناً فقال تعالى ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ (القصص: ٢٦).

- وللأمانة مواضع عديدة نذكر منها :

١ - أمانة العقل : فالعقل أمانة لدى الإنسان إن عمل بمقتضاه وحافظ عليه من التلف ونظمه بالعلم والمعرفة كان قائماً بحق الأمانة مؤديا لها على أكمل وجه.

٢ - أمانة الجسم : بالحفاظ عليه وتغذيته وعدم الإرهاق في الأعمال الشاقة التي فوق طاقته.

فعن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى؟ قال فضرب بيده على منكبي ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها)(٧٦).

وجاء رجل يسأل رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة؟ فقال له : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة؟ فقال : وكيف إضاعتها ! قال : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة)(٧٧).

٣- أمانة الحواس من كل أذى وأن يستعملها الانسان في مرضاة الله تعالى دون معصيته قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٧).

٤ - أمانة العمل من الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملاً في العمل الذى يناط به، وأن يستنفذ جهده في إبلاغه فإن استهانة الفرد بما كلف به. وإن كان بسيطا - تستتبع شيوع التفريط في حياة الجماعة كلها، ثم استشراء الفساد في كيان الأمة. فمن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه لجر منفعة شخصية أو قرابة قال تعالى: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما

كسبت وهم لا يظلمون ﴾. وقال رسول الله ﷺ : «من ولى من أمر المسلمين شيئاً، فآمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلاً حتى يدخله جهنم»(٧٨).

٥ - أمانة الأموال والأولاد وأنها ودائع الله عندك فيجب أن تسخرها في قرباته ومرضاته قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٢٨).

٦ - ومن معانى الأمانة أن تحفظ حقوق المجالس فلا تدع لسانك يفشى أسرارها ويسرد أخبارها فكم من مصالح قطعت وحبال تقطعت لإستهانة بعض الناس بأمانة المجلس وعما يدور به. قال رسول الله ﷺ : (المجالس بالأمانة إلا ثلاث: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق)(٧٩)، وعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : (إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة)(٨٠).

٧ - كذلك العلاقة الزوجية لها قداسة في نظر الإسلام ولها حرمتها فلا يطلع عليها أحد مهما كانت قرابته. قال رسول الله ﷺ «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى أمرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها» (٨١).

٨ - كذلك أمانة حقوق الناس برد الودائع إلى أصحابها فكان البخاري يحافظ على هذه الأمانة ويردها إلى صاحبها كاملة ولشدة خطر هذا الأمر جعل الإسلام روح الميت معلقة حتى تقضي عنه ديونه. قال رسول الله ﷺ : (أدّ الأمانة إلى من أئتمنك ولا تخن من خانك)(٨٢).

- وللأمانة ثمرات عديدة منها :

١ - الإنسان الأمين يحبه الله ورسوله.

٢ - أعد الله للأمين منزلة عظيمة في الآخرة وهي جنة الفردوس. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (المؤمنون ٨ - ١١).

٣ - الأمانة توجد الثقة والطمأنينة بين أفراد المجتمع، وتقوى أواصر المحبة والأخوة والتعاون بينهم.

٨ - خلق الحلم :

الحلم : هو الأناة والعقل وهو مكرمة من مكارم الأخلاق ومفتاح إلي كثير من الفضائل ومغلاق لكثير من الشرور والآفات. والحلم هو الصبر، والصبر شطر الإيمان ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣) فكم أطفأ الحلم ناراً أشعلتها العداوة والبغضاء ولكم حسم الحلم أموراً عقدها التهيج والتشنج(٨٣).

ولتفاوت درجات الناس أمام المثيرات والشدائد، فمنهم من يصبر ويحتسب الأجر عند الله محتفظاً برجاحة عقله وخلقه، ومنهم من يجزع لذلك ويستحمق على عجل، وهناك ارتباط وثيقاً بين ثقة المرء بنفسه وبين أناته مع الاخرين وتجاوزه عن خطئهم وحلمه مع الناس وعذره لهم واتساع صدره لهم، والتماس المبررات لأغلاطهم وحسن الظن بهم كل هذه الأمور دلالة على رجولة وعظمة وثقة هذا الشخص وإيمانه.

وكانت هذه الصفة وراء نجاح الأنبياء والرسل وقوتهم وإبلاغ الرسالة كما كُلِّفُوا بها.

فهذا نوح عليه السلام عصاه قومه ومكروا مكراً كُبَّاراً فما كان منه إلا أنه دعا الله بالغفران لمن تبعه والصبر على أذاهم. وهذا إبراهيم عليه السلام وقصته مع أبيه وقومه وصبره على أذاهم وحلمه وتحمله الكثير من أبيه ودعائه له بالغفران.

وكذلك صبر الرسول عليه السلام وحلمه مع قومه وتحمله الكثير من الأذى والاستهزاء، وكان يدعو الله في النهاية بقوله «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(٨٤)

وغيرهم من الأنبياء جميعاً كانوا يتسمون بالحلم والعفو عن أذى قومهم.

وقد كان النبي ﷺ يغضب أحياناً غير أنه ما يجاوز حدود التكرم والإغضاء. والمحفوظ من سيرته عليه السلام أنه ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها. فلما قال له أعرابي جلف وهو يقسم الغنائم: اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، لم يزد في جوابه أن بين له ما جهله، ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل). ونهى أصحابه أن يقتلوه حين هم بعضهم بذلك.

قال تعالى: ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ «الحجر: ٨٥».

وقال: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ آل عمران ١٥٩.

وبشر الله بالجنة الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.

وسيئات الغضب كثيرة وشاقة ونتائجه وخيمة أكثر، ولذلك كان ضبط النفس عند الثورة دليل قدرة محمودة وتماسك كريم، ومجاهدة نفس فقد قال رجل للنبي ﷺ: أوصني ولا تكثر على لعلي لا أنسى! قال: «لا تغضب لا تغضب»(٨٥).

وكانت عادة الجاهلية القسوة والغلظة في الكلام وسرعة الغضب فجاء الإسلام يمحو تلك العادات وروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله

ﷺ : (رأيت قصوراً مشرفة علي الجنة، فقلت : يا جبريل لمن هذه؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس).

وقال معاذ بن جبل : لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال : (مازال جبريل يوصني بالعفو فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود).

وكان المأمون رحمه الله يحب العفو ويؤثره ويقول «لقد حبب إليّ العفو حتى أني أخاف أن لا أثاب عليه»، وكان يقول : لو علم أهل الجرائم، لذتي في العفو لارتكبوها.

وقالوا : ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام.

وقال الشاعر :

فإن كنت تبغي بالعقاب تشفياً فلا تزهدن عند التجاوز في الأجر

وكان معاوية يعرف بالحلم ويقول : إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي، وهذه مروءة عاليه المرتبة.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب)(٨٦) وقال ابن مسعود : كفى بالمرء إثما أن يقال له : اتق الله فيغضب، ويقول : عليك نفسك.

وعن معاذ بن جبل عن أنس عن النبي ﷺ قال :

(من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أى الحور شاء)(٨٧).

والإسلام حرص على تربية النفس على السماحة والحلم، ونفر من سرعة الغضب. قيل لرسول الله ﷺ: ادع الله على المشركين والعنهم! فقال: إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً) (٨٨).

وعلى قدر تحمل المؤمن تكون المنزلة عند الله تعالى ويكفى أن صفة العفو من صفات الله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

وقال: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

وقد أمر الله بها رسوله فقال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ «آل عمران ١٥٩).

فيكفى لنا أن نمتثل لأمر الله ويكفى أن الله يعفو عن الخلائق فكيف بالخلائق مع بعضهم البعض، والمسلم على ضوء هذا الخلق يعيش مطمئناً هادىء الأعصاب، طيب النفس، محتسب أجره إلى الله تعالى معتمداً على الله أولاً وآخراً يدفع السيئة بالحسنة ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧).

وقال الغزالي في - الاحياء - (اعلم أن الغضب إذا لُزِمَ كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلي الباطن، واحتقن فيه فصار حقداً، ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبغض له والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى فالحقد

ثمرة الغضب(٨٩) . فقد قال رسول الله ﷺ : «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار»(٩٠) . ثم ذكر الغزالي لعلاج الغضب وسائل عديدة عن طريق العلم والعمل منها :

١ - أن يخاف الله وعقابه.

٢ - أن يتفكر المسلم الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ والعفو واحتمال الأذى.

٣ - بالتعوذ من الشيطان الرجيم لأن الغضب من الشيطان(٩١) .

٩ - الصبـــر

من محاسن الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المسلم: الصبر واحتمال الأذى في ذات الله وابتغاء مرضاته والصبر هو : حبس النفس علي ماتكره أو احتمال المكروه بنوع من الرضا والتسليم.

فالمسلم يحبس نفسه علي ماتكرهه من عبادة الله وطاعته. ويلزمها بذلك إلزاماً ويحبسها دون معاصى الله عز وجل، فلا يسمح لها باقترابها ولا يأذن لها في فعلها مهما تاقت نفسه لذلك بطبعها، ويحبسها علي البلاء إذا نزل بها فلا يتركها تجزع ولا تسخط وعلى الإنسان أن يتذكر أن الأقدار جارية وأن قضاءه تعالى عدل وحكمه نافذ، صبر العبد أم جزع غير أنه مع الصبر الأجر الكبير، ومع الجزع الغدر الشديد(٩٢).

وإذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها فالصبر وحده هو الذى يشع للمسلم النور العاصم من التخبط والهداية الواقية من القنوط، والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه. فيجب أن يوطن نفسه علي احتمال المكاره دون ضجر، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، وعلى المسلم أن يظل موفور الثقة بالله، ثابت على إيمانه عند الشدائد، والابتلاءات قال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد: ٣١) وقال ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

وقال أيضاً: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ البقرة: ١٥٦.

والصبر وعدم الجزع مثله مثل الحلم من الأخلاق التي تكتسب وتنال بنوع من الرياضة والمجاهدة، ولذلك نجد كثيراً من الآيات اقترن فيها الصبر بالحلم والعفو سواء بصورة مباشرة أو ضمنية كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠)، وقول ﷺ «ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر».

والصبر له صورتان :

١ - **أما الأولى** فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار، بل جعلها دار تمحيص وامتحان وتجارب متصلة الحلقات قد يمتحن بالشيء وضده مثلما يصهر الحديد في النار ثم يرمى في الماء وهكذا.

فهذا سليمان عليه السلام رزقه الله العلم بطبيعة الدنيا فقال تعالى ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل : ٤٠).

وقد يكتب القدر على البعض صنوفاً من الابتلاء ربما انتهت بمصارعهم. وليس أمام الفرد إلا أن يستقبل البلاء بالصبر والتسليم، حتى ينجح في هذا الاختبار الدنيوي(٩٣).

هذا الامتحان إما ان يكون نفسياً (في شخصه أو أولاده أو أسرته أو ماله) وإما أن يكون دينياً بإلقاء شبهة ما أمامه ،أو تشكيك في أمر دينى خاصة وقد اتسعت مجالات الغزو الفكري الجهود الهدامة للعلمانية وغيرها.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم: ٥).

فلابد للمؤمن من الصبر علي البلاء والشكر عند الرخاء وقد أكد لنا القرآن الكريم أن كلا الأمرين خير للعبد يستحق الحمد والشكر. قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ النساء: ٧٩ وقال ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥) وهذا هو رسول الله يقول عند موت إبنه إبراهيم وقد ذرفت عيناه بالبكاء (إن القلب يخشع والعين تدمع وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولانقول إلا مايرضى الله ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون).

وقيل: إن امرأة أيوب عليه السلام قالت: لودعوت الله تعالى أن يشفيك؟ فقال لها: ويحك كنا في النعماء سبعين عاماً، أفلا نصبر على الضراء مثلها. فلم يلبث إلا يسيراً وعوفى.

وقيل: الصبر مفتاح الظفر، والتوكل علي الله رسول النجاح(٩٤).

٢ - **أما الحقيقة الثانية** فتتعلق بطبيعة الإيمان، فالإيمان صلة بين الانسان وبين الله عز وجل، وإذا كانت صلات الصداقة بين الناس لايعتد بها ولاينوه بشأنها إلا إذا أكدها مر الأيام وتقلب الليالى، واختلاف الحوادث، فكذلك الإيمان لابد أن تخضع صلته للابتلاء الذى يمحصها، فإما كشف عن طيبها، وإما كشف عن زيفها(٩٥). فالذنوب تنقص الإيمان فإذا تاب العبد أحبه الله وقد ترتفع درجته بالتوبة. قال بعض السلف (كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة)(٦٦).

- والناس في ذلك أنواع :

منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع.

والمؤمن المحمود الذي يصبر علي مايصيبه ويرحم الناس، والانسان لايحاسب علي مافي علم الله، بل حسابه علي عمله الشخصى، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانو يكسبون.

وعلي هاتين الحقيقيتن يقوم الصبر، وبهما يطالب الدين، ولكن عادة الانسان أن يتجاهل مايصيبه من صعاب أو يتبرم بالآلام إذا مسته فأولى بالمؤمن أن يدرب نفسه علي الصبر وعدم الاستعجال «خلق الانسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون» ولذلك كان «الصبور» اسم من أسماء الله الحسنى.

وهي من عناصر الرجولة والبطولة.

والعفو والحلم واحتمال الأذى صنو الصبر وكل منهما مكمل ومتمم للآخر فلا يتم العفو إلا بالصبر على الإساءة والتغاضي عنها.

وقد سقنا أمثلة كثيرة على العفو والحلم فيما سبق.

هذا ويؤكد القرآن الكريم في عديد من آياته على الصلة الوثيقة بين التقوى والصبر فوجدنا في معظم الآيات التي تتحدث عن الصبر تربطها بالتقوى حيث إن التقوى هي فعل المأمور وترك المحظور.

أما الصبر فهو يتضمن الصبر علي المقدور. قال تعالى: ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ (آل عمران ١٢٠)، وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ

إن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران ١٢٥).

وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ آل عمران ١٨٦).

الصبر مع القدرة:

والصبر مع القدرة جهاد، بل هو أفضل من الجهاد وأكمل وذلك لثلاثة أوجه:

الأولى: إن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب.

الثاني: إن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك.

الثالث: إن طلب النفس لها إذا كان مرده أمراً دينيا كمن خرج لصلاة أو طلب علم أو جهاد فابتلى بما يميل إليه من ذلك، فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور وترك المحظور.

و«الصبر الجميل» صبر بلا شكوى.

والهجر الجميل. والشكوى لا تنافي الصبر الجميل، فقد كان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس).

والصبر أنواع: صبر على الطاعة، صبر على المعصية وصبر على النوازل.

أما الصبر على الطاعة كحال الإنسان مع أركان الإسلام تحتاج في القيام بها والمداومة عليها إلي تحمل ومعاناة فمثلاً الصلاة فريضة متكررة خمس مرات يومياً فقال تعالى فيها : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه : ١٣٢) وقال : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾(البقرة ٤٥) .

والصبر على المعاصي - هو عنصر المقاومة للمغريات التي ثبتت في طريق الناس تزين لهم المآثم المحظورة والإقبال على المكاره، والإدبار عن الشهوات لا يتأتى إلا لصبور والمسلم إذا احتمى بالله ولجأ إليه قبل حدّ الحوادث على بدنه وهناك الصبر على ما يصيب المؤمن في نفسه وماله وأهله أي صبر على المقدور (٩٨) قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ . (البقرة : ١٥٥) .

• أقسام الصابرين على القدر الكوني :

أحدها : أهل التقوى والصبر وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

الثاني : أهل التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من فرائض ويتركون المحرمات، لكن إذا أصيب أحدهم بمرض ونحوه جزع وهلع.

الثالث : أهل الصبر بلا تقوى. مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغضب وأخذ الحرام.

الرابع : وهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا بل هم كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾. (المعارج ١٩ - ٢١).

فهؤلاء تجدهم أظلم الناس إذا قدروا، وأذل الناس وأجزعهم إذا قهروا(٩٩١).

والإسلام دعانا إلي الصبر عند المصيبة فعندها يتم امتحان المؤمن الصبور وغير الصبور قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾. (البقرة : ١٥٥ - ١٥٦).

وقال ﷺ : (أنا برئ من الحالقة والصالقة والشاقة)(١٠٠). والصبر على مصائب الدنيا أفضل وأعظم، كصبر الأنبياء على أقوامهم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾(الأحقاف ٣٥). وقال ﷺ : «من أصيب بمصيبة في ماله أو جسده وكتمها ولم يشكها إلي الناس كان حقا على الله أن يغفر له»(١٠١).

فلابد للإنسان من الرضى بقدر الله في الدنيا فإن الرضا جنة الدنيا، ومستراح العابدين، وباب الله الأعظم.

١٠ - التواضع

التواضع من الأخلاق المثالية والصفات العالية، والمسلم متواضع في غير مذلة ولا مهانة، وهو روح الإيمان الحي، ولباب المشاعر الرقيقة التي تقوي الوشائج بين أبناء الأمة، وتوثق عرى الألفة والمحبة.

يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ (الإسراء: ٣٧) إنها أدب رباني ليتجنب المسلم الفخر والامتثال ينأى بنفسه عن التمايل والكبرياء.

بل إن المتعالين في الأرض طبع الله على قلوبهم وعميت أبصارهم فلا يستشعرون قدرة الله القاهرة فوقهم ولا ينتفعون بآيات الله الباهرة من حولهم يقول تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٥) وقوله: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (الأعراف: ١٤٦) فالمسلم يتواضع ليرتفع، ولا يتكبر لئلا يخفض، إذ سنة الله جارية في رفع المتواضعين له، ووضع المتكبرين، قال رسول الله ﷺ «ما نقصت صدقة من مال، ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (١٠٢)

وكفى للامتثال بهذا الخلق أن أمر الله به في كتابه ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥) والخفض نقيض الرفع.

وقال في الثناء على أوليائه بصفة التواضع ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤) وقال في جزاء المتواضعين:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٨٣) وقال ﷺ : في الترغيب في التواضع : (مابعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال له أصحابه : وأنت؟ قال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة). (١٠٣) وقال ﷺ في التنفير من الكبر : (ألا أخبركم بأهل النار كل عُتُلٍ جواظٍ مستكبر)) متفق عليه.

وقال ﷺ : (الكبر بطر الحق، وغمط الناس)(١٠٤) بطر الحق يعني : إنكاره، والغمط : الاحتقار وكفران النعمة.

وقد توعد الله تعالى هؤلاء المتكبرين في الأرض بالنهاية الذليلة في الدنيا والحساب الأليم في الآخرة. فهذا قارون الذي عاش متكبراً في الأرض وخرج على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر مستعلياً متجبراً فكان عاقبته الخسف في الأرض ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص: ٨١) ولنا في رسول الله الأسوة والقدوة في المثل العليا فقد كان طيب الخلق كريم الطبع حسن المعاشرة طلق الوجه، بساماً رحيماً، لين الجانب وكان ﷺ يخرج إلي السوق فيشتري حاجته ويحملها بنفسه، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله ويعقل البعير ويأكل مع الخادم ويحسن معاملته ويطحن عنه إذا أعيا ويجالس المساكين ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام ويلاعب الصبيان ويسلم عليهم ويجالسهم ويسمعهم ويصافح الغني والفقير والحر والعبد صغيراً كان أو كبيراً(١٠٥).

لم يكن يفعل ذلك كله ضعفاً أو فقراً أو احتياجاً وإنما تواضعاً. وقد سلك صحابته الكرام هذا المسلك واقتدوا بنبيهم محمد ﷺ في خلقه فضربوا لنا جميعاً أعظم وأبرز الأمثلة في التواضع: فهذا هو خليفة رسول الله الأول وصديقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان يحلب للضعفاء أغنامهم ويقضي حاجتهم كرماً منه ورفقاً بهم.

وهذا هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل الدقيق للمرأة العجوز، وينفخ النار لإنضاج الطعام لأطفالها. وروى أنه مر يوماً حاملاً لحماً بيده اليسرى، وفي يده اليمنى الدره وهو أمير المؤمنين والخليفة آنذاك.

وروى أن علياً رضي الله عنه اشترى لحماً فجعله في ملحفته فقيل له: يحمل عليك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أبو العيال أحق أن يحمل. وكان متواضعاً في حياته ومسكنه.

وروى أن أبا هريرة رضي الله عنه أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة بالمدينة لمروان، ويقول: أوسعوا للأمير ليمر وهل يحمل حزمة الحطب(١٠٦).

ولازال التاريخ إلى يومنا هذا يعطي لنا وينشر من صفحاته الخالدة صوراً لتواضع سلفنا الصالح ممن أعطوا للإنسانية رشدها وهداها وقدموا لنا صوراً حية نابضة وضربوا المثل الرائع في التواضع والرحمة.

وهذا هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان كان يلي وضوء الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم فكَفُوك؟ فقال: لا إن الليل لهم يستريحون فيه.

وكان عبدالله بن سلام رضي الله عنه يمشي بالمدينة وعلى رأسه حزمة حطب. فقيل له ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عز وجل؟ فقال أردت أن أدفع به الكبر فإني سمعت رسول الله يقول لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس).

فيم يكون التواضع؟

التواضع له مظاهر عديدة منها:

١ - إنّ تقدم الرجل على أمثاله فهو متكبر، وإن تأخر فهو متواضع. فقد كان الرسول ﷺ إذا حدث بشيء مما أتاه الله قال: ولا فخر وكان يقول: (لا ترفعوني فوق قدري فتقولوا في ما قالت النصارى في المسيح فإن الله عز وجل اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً).

٢ - إن قام من مجلسه لذي علم وفضل وأجلسه فيه وإن قام سوى له نعله وخرج خلفه إلى باب المنزل ليشيعه فهو متواضع.

فالتواضع سلم الشرف.

٣ - إن قام للرجل العادي وقابله ببشر وطلاقة وتلطف معه في السؤال وأجاب دعوته وسعى في حاجته، ولم يرى نفسه خيراً منه فهو متواضع.

كما أوضحنا ذلك سابقاً من سيرة الرسول والصحابة والتابعين.

٤ - إن زار غيره ممن هودونه في الفضل أو مثله وحمل معه متاعه أو مشى معه في حاجاته فهو متواضع.

٥ - إن جلس إلي الفقراء والمساكين والمرضى وأصحاب العاهات، وأجاب دعوتهم وأكل معهم. وما شاهم في طريقهم فهو متواضع.

٦ - إن أكل أو شرب في غير إسراف، ولبس في غير مخيله بشرط الاستطاعة على ذلك فهو متواضع قال رسول الله ﷺ (من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه).

كل هذه الوجوه وجدناها حية في حياة رسول الله ﷺ فلم يترك جانباً فيه تواضع إلا وضرب فيه القدوة والمثل. فكان رسول الله مرة في سفر مع أصحابه فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاماً، فقسموا العمل بينهم فقام يجمع الحطب فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى، ولما وقف عليه أعرابي يرتجف خشية أجره وذكره أنه ابن امرأة قريش كانت تأكل القديد، وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا فقاموا له فقال: (لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً).

وكما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حج على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم فقال: اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه لا سمعة) (١٠٦).

وقد جاء في وصية لقمان لولده قوله تعالى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ «لقمان: ١٩».

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(لقمان: ١٨).

ومن كل ما سبق يتضح لنا أنه لا يتكبر إلا كل وضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، فسبحان من تواضع كل شيء لعظمته وخضع.

وللغزالي رأي جميل في ذلك فيقول: (التواضع لله بالفعل، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين وأحوال الصالحين، وأحوال الرسول الكريم ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل والمواظبة عليه حتى يصير التواضع له خلقاً)(١٠٧).

١١ - كظم الغيظ

يعد كظم الغيظ من الأخلاق الفاضلة التى مدحها الله عز وجل حيث أن الغيظ انفعال بشري تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم، فهو إحدى دفعات التكوين البشري، وإحدى ضروراته، وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات(١٠٨).

وكظم الغيظ هو المرحلة التى تسبق العفو والصفح وهو وحده لا يكفي فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضغن، فيتحول المتقد الفاير إلى إحنة غائرة ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين، وإن الغيظ والغضب لأنظف وأظهر من الحقد والضغن.. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين.. وذلك بالعفو والسماحة والانطلاق.

فقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران ١٣٤).

فالله سبحانه وتعالى يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم فيرى أن الذين يجودون بالمال في السراء والضراء محسنون، والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون والله يحب المحسنين.

وجميع النصوص التي وردت في الحلم والصفح تدل على كظم الغيظ وأمر الإسلام به ونهيه عن الغضب لأنه مدخل للشيطان فقد روى عن معاذ ابن جبل عن أنس عن النبي ﷺ قال: (من كظم غيظه وهو قادر على أن

ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء) (١٠٩).

وقد استأذن رهط من اليهود على رسول الله فأذن لهم فقالوا: السلام عليك يا محمد فقالت عائشة رضي الله عنها بل السأم عليكم واللعنة فقال: يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله فقالت: ألم تسمع ما قالوا، قال: قد قلت وعليكم.(١١٠) ورُفع إلى عبدالملك بن مروان أعرابي يقال له: حمزة، سرق وقامت عليه البينة فهم عبدالملك بقطع يده فكتب إليه حمزة من السجن يقول شعر:

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها بعفوك أن تلقى مقاماً يشينها

فلا خير في الدنيا وكانت خبيثة إذا ما شمال فارقتها يمينها

فأبي عبدالملك إلا قطعه فدخلت عليه أم حمزة وقالت:

يا أمير المؤمنين بني وكاسبي وواحدي فقال لها بئس الكاسب لك هذا حد من حدود الله فقالت: يا أمير المؤمنين اجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها فقال ادفعوه إليها وخلي سبيله.

وحكى عن جعفر الصادق أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطشت فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب فقال: يامولاي «والكاظمين الغيظ، قال: قد كظمت غيظي، وقال «والعافين عن الناس»، قال: عفوت عنك، قال «والله يحب المحسنين» قال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

هذا وكثير من الناس يرون في الصفح والعفو عاراً وإنزالاً من شأنهم. فربما عجز الشيطان أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم، ولكنه وهو الحريص على إغواء الإنسان وإيراده المهالك. لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربه، حتى يجهل حقوقه أشد ما يجهلها الوثني المخرف، وهو يحتال لذلك بايقاد نيران العداوة في القلوب، فإذا اشتعلت استمتع الشيطان برؤيتها وهي تحرق حاضر الناس ومستقبلهم(١١١).

فقد روى أن عمر رضي الله عنه رأي سكراناً فأراد أن يأخذه ليعزره فشتمه السكران فرجع عنه فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته قال: إنما تركته لأنه أغضبني فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي فلا أحب أن أضرب مسلماً لحمية نفسي.

وقال لقمان لأبنه: يابني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه».

وقيل في ذلك:

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

والإسلام نصح لمن له الحق بالترغيب باللين والسماح وأن يمسح أخطاء الأمس بقبول المعذرة، والإسلام يحارب الأحقاد ويقتل جرثومتها في المهد وقد اعتبر الإسلام من دلائل الصغار وخسة الطبيعة أن يرسب الغل في أعماق النفس فلا يخرج منها إلا إذا أفسدوا.

فالمسلم يجب أن يكون أوسع فكرة وأكرم عاطفة فينظر إلى الأمور من خلال الصالح العام لا من خلال شهواته الخاصة. وكلما ربا الإيمان في القلب ربت معه السماحة وازداد الحلم، ونفر المؤمن من الغضب.

فقد قيل لرسول الله ﷺ: (ادع الله على المشركين والعنهم! فقال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً» (١١٢).

وعلى قدر ما يضبط المسلم نفسه، ويكظم غيظه ويملك قوله، ويتجاوز عن الهفوات، ويرثى للعثرات، تكون منزلته عند الله، ومن ثم استنكر رسول الله ﷺ على أبي بكر أن يلعن بعض رقيقه وقال «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً» وجاء في رواية (يا أبا بكر أصدقين ولعانين كلا ورب الكعبة)(١١٣).

وقد حرم الإسلام السباب بين المتخاصمين وكم من معارك تبتذل فيها الأعراض وتعدو فيها الشتائم المحرمة على الحرمات العزيزة، وليس لهذه الآثام الغليظة من علة إلا تسلط الغضب وضياع الأدب.

وملاك النجاة من هذا كله تغليب الحلم على الغضب، وتغليب العفو على العقاب.

والإسلام دلنا على مسلك أنبل وأرضى لله، وأدل على العظمة والمروءة وهو أن يبتلع الانسان غضبه فلا ينفجر، وأن يقبض يده فلا يقتص، وأن يجعل عفوه عن المسئ من شكر الله الذي أقدره على أن يأخذ بحقه إذا شاء.

فعلى المسلم أن يكون صدره سليماً من الأحقاد خاليا من الغش والحسد والنميمة والغيبة والغضب.

١٢ - العفو عن المسيء

وهو من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام ورغب فيها وندب الله عز وجل نبيه والمؤمنون للأخذ به قال تعالى: ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ الحجر ٨٥.

والعفو: هو الرضا بلا عتاب قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٩.

وقال تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آل عمران ١٣٤.

فهذا الخُلق مرتبط بخلق الكظم للغيظ والإحسان فليس هناك أسلم للمرء ولا أطرد لهمومه، ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب، مبرأً من وساوس الضغينة، وثوران الأحقاد، إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها وأحس فضل الله فيها وفقر عباده إليها. وإذا رأي أذى يلحق أحداً من خلق الله رثى له، فلعل الله أن يفرج كربه ويغفر ذنبه، وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة راضياً غير ساخط، خالياً من نزعات الحقد الأعمى. ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة. فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ويطمس بهجتها ويعكر صفوها. أما القلب المشرق فإن الله يبارك في قليله وهو إليه بكل خير أسرع. روى عن عبدالله بن عمرو قيل: يارسول الله أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان: قيل صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي، لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد».

فالحقد يعمي عن الفضائل، ويضخم الرذائل، وقد يذهب بالإنسان إلي

التخيل وافتراض الأكاذيب. وذلك كله مما يحذر منه الإسلام ويرى في منعه أفضل القربات(١١٤).

ولنا في رسول الله وصحابته والأنبياء جميعاً القدوة والأسوة والمثل العليا فقد كانوا جميعاً يمتثلون هذا الخلق. وهو سر نجاح دعوتهم ونصرتهم على أقوامهم وصبرهم على أذى أقوامهم، فمثله مثل الصبر في الفضل والترغيب والأجر. بل هو أشق على النفس من الصبر، وهو بضاعة الصديقين، وشعار الصالحين.

وحقيقته أن يُؤْذَي المسلم فيصبر ويتحمل، فلا يرد السيئة بغير الحسنة ولا ينتقم لذاته، ولا يتأثر لشخصيته مادام ذلك في سبيل الله، ومؤدياً إلى مرضات الله، وأسوته في ذلك المرسلون والصالحون إذ يندر من لم يؤذ منهم.

وقصص العفو كثيرة جداً، من ذلك عفو رسول الله ﷺ عن زعيم المنافقين عبدالله بن أبي، فقد كان عبدالله هذا ألد أعداء الإسلام كان يحيك للمسلمين المؤامرات ويتربص بهم الدوائر للنيل من نبيهم وهو الذي أشاع فرية الأفك وغيرها. ولذلك كان حز الألم قاسياً في نفس الرسول وأصحابه ومع ذلك نجا هذا العدو ثم مرض ومات بعدما ملأت رائحة نفاقه كل مكان، وجاء ولده إلى رسول الله ﷺ يطلب منه الصفح، ثم طلب منه أن يكفن أباه في قميصه فمنحه إياه ثم طلب منه أن يصلي عليه ويستغفر له، فلم يرد له الرسول الرقيق العفو هذا السؤال. لكن العدالة العليا حسمت الأمر

كله فنزل قوله تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة ٨٠).

وهذا هو أبو بكر الصديق كان له قريب يعيش على إحسانه عليه. لكن هذا القريب لم يتورع عن الخبط في عرض السيدة عائشة في حادثة الإفك. فدفعته الحمية أن يقطع هذا الإحسان فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور ٢٢). فعفا أبو بكر عنه وعاد بعطائه له(١١٥).

وكان علي - كرم الله وجهه - يقول: أولي الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.

وكان الأحنف بن قيس رحمه الله كثير العفو والحلم وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال.

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ الشورى ٤٠). وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «لأسبنك سباً يدخل معك قبرك فقال: معك والله يدخل لا معيً كل هذه النصوص وغيرها كثير لا يحصى يدلنا على أهمية الحلم والعفو، وعلى الأجر والمثوبة العظيمة على هذا الصبر الجميل، وكيف بنا لا نعفو ولا نصفح والله سبحانه وتعالى العظيم الخالق يعفو ويغفر للخلائق ويقابل السيئة بالحسنة والغفران فكيف بنا

ونحن لا نملك شيئاً. والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تدل على أن الله غفور رحيم وحليم.

قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ البقرة (٢٣٥).

وقال: ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (البقرة ٢٣٧).

وقال: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٦٣).

١٣ - الوفاء بالوعد

الوفاء بالوعد أو العهد أدب رباني، وخلق كريم وسلوك إسلامي نبيل، والوفاء بالعهد هو: قيام المسلم بما التزم به سواء كان قولاً أم كتابة فإذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه، وإذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه. فالعهد لابد من الوفاء به كما أن اليمين لابد من البر بها. ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير وإلا فلا عهد في عصيان، ولا يمين في مأثم. قال رسول الله ﷺ «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير».

فالتزامه بدين الله واتباعه لشرع الله ومنهج رسوله ﷺ وفاء. ومن ثم فلا عهد إلا بمعروف.

• أنواع العهود:

أولاً: العهود التي بين الله والناس قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١).

وعبادة الله عهد، والإحسان بالقول والفعل عهد، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة عهد ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (البقرة: ٨٣).

نشر العلم وبيانه عهد ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس ولا تكتمونه ﴾ (آل عمران ١٨٧).

وبيع النفس والمال بالجنة عهد ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(التوبة: ١١١).

وقال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب ٢٣). وهذا النوع من العهود هو أعلاها مكانة، وأقدسها ذماما، وهو العهد الأعظم. فإن الله خلق الإنسان بقدرته. ورباه بنعمته، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة، وأن يعترف بها، وألا تشرد به المغويات فيجهلها أو يجحدها(١١٦). قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (يس ٦٠).

ووفاء الإنسان بهذا العهد أساس كرامته في الدنيا وسعادته في الآخرة ومن سوء الظن بالله أن توفى له ثم تتوقع الشر منه. ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (البقرة ٤٠).

ثانياً : العهود التي بين الناس مع بعضهم البعض مثل عهود الزواج، وتربية الأولاد، وحقوق الجوار، وحقوق الإخوة إلى غير ذلك.

والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين، إذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به، فإن الله أخذ على آدم أبي البشر، عهداً مؤكد ألا

يقـرب الشـجـرة المحـرمـة، لكن آدم مـا لبث أن نسي وضـعف، ثم نكث في عهده ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (طه ١١٥).

فضعف الذاكرة، وضعف العزيمة، عائقان عن الوفاء الواجب.

والإنسـان - لتجدد الحوادث عليـه وترادف الهـموم عليـه - افتقر دائماً إلى مذكر يغالب أمواج النسـيـان، ويمسك أمام عينيـه مـا يوشك أن يذهل منه. والقرآن الكريم يسجل لنا هذه الحقيقة في أكثر من آية منها على سبيل المثال لا الحصر قول تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ «الانعام/ ١٢٦».

وقـوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الاعـراف / ٥٧) ولذلك فتحت آية العهد بالتذكير.

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ «الأنعام / ١٥٢».

وقد كان رسول الله - وهو يدعو الناس الى الإسلام - يبايع الوفود المقبلة عليه بتعاليم تتفا حسب ما يرى من طاقتهم النفسية والعقلية.

فعن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: (كنا عند النبي تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا وقلنا: نبايعك يا رسول الله: قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا، وأسر كلمة خفية قال: ولا تسألوا للناس شيئاً. قال عوف بن مالك: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً أن يناوله إياه).

فهذا وفاء للبيعة ودقة في تنفيذها .

وقد بايع الرسول ﷺ الأنصار أن يجندوا أنفسهم وأموالهم لحماية الدعوة. وقدموا دماءهم وأموالهم في سبيل الله والدعوة(١١٧) .

والحق أن الرسالات الكبرى أحوج ما تكون إلى رجال على غرار الأنصار يفتدون كلمتهم بأوراحهم وما يملكون، لا يشغلهم عن ذلك عرض زائل.

والوفاء بالوعود شرف عظيم قال تعالى: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ١٠) .

فنقض العهد غدر ينتهي بصاحبه إلى النفاق، وربما الطرد من رحمة الله تعالى، فقد روى أن رجلا من أهل المدينة يدعى ثعلبه أتى مجلسا من مجالس الأنصار فأشهدهم لئن آتانى الله من فضله آتيت منه كل ذى حق حقه، وتصدقت منه ووصلت القرابة، فمات ابن عم له، فورث منه مالا. فلم يف بشيء مما عاهده له، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة / ٧٥ - ٧٧) .

ومن أشد الآيات وقعاً على النفس في نقض العهد قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾(الصف: ٢ - ٣) .

والحديث المشهور، (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خاف) .

والوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون وتصدق فيه خطرات الظنون.

وقال عمر بن الخطاب: لكل شيء رأس ورأس المعروف تعجيله.

والاسلام يوصى باحترام العقود وضرورة إنفاذ شروطها فالمسلمون عند شروطهم كما دلنا على ذلك رسولنا الكريم. والثقة بين الناس في كافة مجالات الحياة أساسها الوفاء بالوعود المشروعة.

فقد تتابعت آيات القرآن تحض على الوفاء وتخوف من الغدر «وأوفوا العهد! إن العهد كان مسئولا» (الاسراء: ٣٤).

والغدر ينزع الثقة، وينشر الفوضى ويمزق الأواصر ويرد الأقوياء ضعافا يقول تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ (النحل / ٩١).

الوفاء بالوعد واجب للمسلم والكافر.

لا ينبغى للمرء أن يكون خسيساً مع قوم وكريما مع آخرين فالفضلية لا تتجزأ. ويحرص الإسلام على ذلك كثيراً لتميزه بذلك حيث إن من الصفات اللازمة لليهود نقض العهود. وكثيراً ما غدر المشركون واليهود بعهدهم مع رسول الله (ﷺ) من ذلك:

حديث حذيفة بن اليمان حيث قال: (ما منعني أن أشهد بدراً إلا أنني خرجت أنا وأبي الحسيل فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمداً؟ فقلنا مانريده، وما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله ومثياقه لننطلق إلي

المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله فأخبرناه الخبر فقال: (انصرفا نَفِي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم).

ومن الشئون التي اهتم بها الإسلام ونوه بقيمة الوفاء بها كثيراً وشدد على ضرورة الوفاء بها هي «الديون» فإن سدادها من آكد الحقوق عند الله تعالى. وأن صاحب هذا الدَّيْن يقتص الله منه يوم القيامة إذا مات إلا أن يُقضى هذا الدين. حتى أن الشهيد يغفر الله له كل شيء إلا قضاء الدين.

ومع ذلك الحذر الشديد وخطره في الاخرة إلا أن الناس قد استهانت بالديون فاقترضوها لشهوات الغي والبطون والفروج عن طريق الربا المحرم تحريماً باتاً فنكبوا نكبات جائحة في ديارهم وأموالهم.

وفي التاريخ الإسلامي وقائع لا تحصى من وفاء المسلمين بعهودهم مع المسلم وغير المسلم. فالوفاء بالعهد في ذاته قوة، فوق أنه عدالة وفضيلة. فقد عُرِفَ المسلمون بالوفاء بالعهد حتى في الحرب فهم متمسكن باخلاقهم وعدم نقض عهودهم.

هوامش الفصل الخامس

١ - رواه مسلم في الإمارة باب : فضيلة الإمام العادل ٣ / ١٤٥٨ .

٢ - مختصر صحيح مسلم للألباني / ص ١٤٧ ح رقم ٥٣٧ .

٣ - المستطرف في كل فن مستشرف / ص ١١٣ .

٤ - الأخلاق في التصور الإسلامي / د. آمنه نصير / ص ٤٦ .

٥ - منهاج المسلم / لأبى بكر الجزائرى / ص ١٤٧ - ١٤٨ .

٦ - المستطرف / ص ١١٤ .

٧ - في ظلال القرآن / ج٣ ص ٦٨٩ .

٨ - رواه مسلم في كتاب الحدود، باب : قطع السارق الشريف وغيره / والنهى عن الشفاعة في الحدود ٣ / ١٣١٥ رقم ١٦٨٨ .

٩ - كنز العمال / ٣ / ٤١٤ .

١٠ - سبق ذكره.

١١ - أخرجه مسلم في صحيحه - الصيد والذبائح - رقم ١٩٥٥ عن أبى يعلى شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ .

١٢ - منهاج المسلم / ص ١٥٢ .

١٣ - خلف المسلم / ص ١٠٩ .

١٤ - سبق ذكره.

١٥ - رواه أبو داود في كتاب الطب رقم ١٩ ، والترمذي في كتاب البر رقم ١٦ ، وأحمد جـ٤ ، ص ١٧ ، ١٨ .

١٦ - رواه مسلم في كتاب الفضائل باب رحمته ﷺ جـ٤ / ص ١٨٠٩ .

١٧ - رواه أحمد جـ٢ ص ٣٠١ ، ورواه الترمذي في كتاب البر رقم ١٦ .

١٨ - مختصر صحيح مسلم للألباني / ص ٤٦٧ . ٤٦٨ ح (١٧٧٤).

١٩ - رواه مسلم في كتاب البر رقم ٨٧، وأحمد جـ ٥ ص ٢٥٠.

٢٠ - متفق عليه / اللؤلؤ والمرجان ٣ / ١٠٣.

٢١ - خلق المسلم / ص ٢١٢.

٢٢ - أخرجه مسلم (١٨٢٨ / ١٩).

٢٣ - أخرجه مسلم (٢٥٩٢ / ٧٤) وأبو داود (٤٨٠٩).

٢٤ - مكارم الزخلاق / ص ٧٣.

٢٥ - المستطرف / ص ١٣٩.

٢٦ - مختصر صحيح مسلم / ص ١٥ رقم ٣١.

٢٧ - أبناؤنا بين وسائل الأعلام وأخلاق الإسلام / ص ٧٩.

٢٨ - مختصر صحيح مسلم / ص ٤١٢ ح ١٥٦٨، والبخاري ١٠ / ٥١٣.

٢٩ - مختصر صحيح مسلم / ص١٥ / حديث ٣٠.

٣٠ - اخرجه الحاكم.

٣١ - رواه الشيخان البخاري في باب الحياء ١٠ / ٥٢١، ومسلم باب شعب الإيمان ١ / ٦٤.

٣٢ - خلق المسلم / ص ١٦٢.

٣٣ - أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب الحياء ٢ / ١٣٩٩ رقم ٤١٨١، ومالك في الموطأ كتاب حسن الخلق باب ما جاء في الحياء ٢ / ٩٠٥.

٣٤ - أخرجه البخاري - الأدب المفرد - ٢ / ٦٠.

٣٥ - أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب التبسم والضحك - الفتح ١٠ / ٥٠٤.

٣٦ - أخرجه الترمذي في كتاب الأدب ٥ / ٩٧ ، وأبو داود باب ما جاء في التعرف ٤ / ٣٠٤ .

٣٧ - أخرجه الترمذي والطبراني من حديث عائشة ٣ / ٤٠٠ .

٣٨ - خلق المسلم / ١٦٨ ، ١٦٩ .

٣٩ - أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب والحاكم .

٤٠ - أخرجه أحمد في مسنده ٣ / ٤٠٤ .

٤١ - خلق المسلم / ص ١٤٢ .

٤٢ - أخرجه البخاري برقم ١٤٠٠ ومسلم رقم ١٢٤ (١٠٥٣) ورقم ٧٢٩ .

٤٣ - أخرجه أحمد جـ٤ ص ١٦٢ ، ٢٦٦ ، والبخاري ومسلم ومالك والطبراني وابن حيان .

٤٤ - رواه أبو نعيم في الحليه بلفظ قريب .

٤٥ - أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود .

٤٦ - أخرجه البخاري ومسلم .

٤٧ - في ظلال القرآن / محمد قطب / جـ١ / ص ٣١٥ .

٤٨ - في ظلال القرآن / جـ١ / ص ٣١٧ .

٤٩ - أخرجه البيهقي في الشعب والترمذي (٢٤٧٨) وابن ماجه (٣٣٥٠) .

٥٠ - متفق عليه البخاري (٥٣٩٤) ، (٥٣٩٥) ومسلم (٢٠٦٠ / ١٨٢) .

٥١ - أخرجه الطبراني وأبو نعيم .

٥٢ - رواه الترمذي .

٥٣ - أخرجه ابن ماجه .

٥٤ - أخرجه البزار .

٥٥ - رواه النسائي.

٥٦ - رواه أبو داود.

٥٧ - أخرجه البخاري/ ١٠ / ٥٠٧ ح ٦٠٩٤ باب ٩٥، ومسلم (٢٠٣٤) ح ٢٦٠٧ باب ٢٩.

٥٨ - أخرجه البخاري في الأدب ١٠ / ٤٨١.

٥٩ - أخرجه الترمذي ٤ / ٦٦٨ ح ٢٥١٨، وأحمد في مسنده ١ / ٢٠٠.

٦٠ - خلق المسلم/ ص ٣٥.

٦١ - أخرجه أحمد.

٦٢ - أخرجه زحمد.

٦٣ - أخرجه مالك.

٦٤ - أخرجه أحمد ٣ / ١٤٤٧ وأبو داود ١٣ / ٣٣٥.

٦٥ - أخرجه البخاري.

٦٦ - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب/ ٥ / ١٥٠.

٦٧ - رواه الترمذي.

٦٨ - مكارم الأخلاق/ ص ١٢٦، ١٢٧.

٦٩ - أخرجه الترمذي.

٧٠ - أخرجه البخاري.

٧١ - زخرجه مسلم ٣ / ١٥١٧.

٧٢ - أخرجه البخاري ١ / ٢١٥ ومسلم ٣ / ١٤٥٩ ح ٢٠ في الإمارة ٢٣ / ٥ وأحمد في مسنده ٢ / ١١١.

٧٣ - كنز العمال ٣ / ٦٣.

٧٤ – أخرجه الطبراني.

٧٥ – منهج التربية النبوية للطفل / ص ١٧٤.

٧٦ – رواه مسلم.

٧٧ – رواه البخاري.

٧٨ – رواه أحمد والحاكم عن أبي بكر – الجامع الكبير ١ / ٨٤٢.

٧٩ – رواه أبو داود، باب في نقل الحديث / عون المعبود / ١٣ / ٢١٧.

٨٠ – رواه أبو داود في باب نقل الحديث / ١٣ / ٢١٦، والترمذي في البر ٤ / ٣٤١.

٨١ – رواه مسلم في النكاح باب: تحريم إفشاء سر المرأة ٢ / ١٠٦، وأبو داود في باب نقل الحديث.

٨٢ – كنز العمال ٣ / ٦٣.

٨٣ – أبناؤنا / ص ٨٠.

٨٤ – أخرجه البيهقي في دلائل وصحيح البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢ / ١٠٥).

٨٥ – رواه مالك والبخاري (٦١١٦).

٨٦ – متفق عليه أخرجه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩ / ١٠٧).

٨٧ – زخرجه أبو داود (٤٧٧٧) والترمذي (٢٠٢١، ٢٤٩٣) وابن ماجه (٤١٨٦) من حديث معاذ بن أنس.

٨٨ – رواه مسلم.

٨٩ – إحياء علوم الدين / جـ٣ / ص ٢٥٦.

٩٠ – أخرجه أبو داود (٤٧٨٤) من حديث عطيه السعدى.

٩١ – راجع بالتفصيل الإحياء / جـ٣ / ص ٢٤٤ – ٢٤٦.

٩٢ - منهاج المسلم / ص ١٣٨.

٩٣ - خلق المسلم / ص ١٣٢.

٩٤ - المستطرف / ص ٥٦٥.

٩٥ - خلق المسلم / ص ١٣٣.

٩٦ - مكارم الزخلاق / ص ١٣٠.

٩٧ - منهاج المسلم / ١٤٠.

٩٨ - مكارم الزخلاق / ص ١٣٣.

٩٩ - المرجع السابقة / ص ١٣٥.

١٠٠ - رواه البخاري ومسلم.

١٠١ - كنز العمال / ٣ / ٣١١.

١٠٢ - أخرجه مسلم ٤ / ٢٠٠١ في البر والصلة باب استحباب العفو والتواضع ج ٣٥٨٨.

١٠٣ - أخرجه البخاري - الفتح ٤ / ٤٤١ في الإمارة رعى الغنم عليقراريط ح ٢٢٦٢ عن أبى هريرة.

١٠٤ - أخرجه مسلم وأبو داود والحاكم في كتاب الإيمان جـ١ ص ١٤٧، وابن ماجه في الدعاء ١٠، وأحمد جـ٤ ص ١٣٣.

١٠٥ - منهاج المسلم / ص ١٦١، الإحياء/ جـ٣ / ص ٥٠١.

١٠٦ - رواه البخاري.

١٠٧ - الإحياء / جـ٣ / ص ٤٨٣ - ٤٩٧.

١٠٨ - في ظلال القرآن / سيد قطب / ص ٤٧٥ / جـ١.

١٠٩ - سبق ذكره أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

١١٠ - جاء بلفظ آخر «إن الله رفيق يحب الرفق يعطي عليه ما لا يعطي على العنف» أخرجه مسلم (٢٥٩٣ / ٧٧) من حديث عائشة.

١١١ - خلق المسلم / ص ٨٧ ٨٨.

١١٢ - رواه مسلم.

١١٣ - أخرجه ابن أبي دنيا في الصمت وضعفه الجمهور وقال أحمد حسن.

١١٤ - منهاج المسلم/ ص ١٣٩.

١١٥ - خلق المسلم/ ص ١١٧.

١١٦ - خلق المسلم / ص ٥٧.

١١٧ - المرجع السابق/ ص ٥٩.

الفصل السادس

الأخلاق في فكر بعض العلماء والمربين

تمهيد :

وبعد هذه الجولة الموجزة مع القيم الأخلاقية في شتى الميادين، وفي جوانب حياة البشر، ومعرفتنا بأهم خصائص ومميزات الأخلاق الإسلامية وأهدافها وثمارها.

بقيت لنا نقطة أخيرة في هذا الكتاب وهي أن نقدم نموذجاً لبعض المفكرين الإسلاميين الذين برزوا في علوم شتى وكان من جملتها علم الأخلاق، وكانوا أعلاماً بارزين في تأسيس وتنظير علم الأخلاق من أمثال : الإمام الغزالي وابن الجوزي وابن مسكويه. مع اختلاف كل منهم في المنهج والتطبيق.

فمثلاً الغزالي غلب عليه طابع الصوفية. وابن الجوزي وهو عالم فقيه وواعظ جاءت نظريته الأخلاقية متأثرة بذلك. وابن مسكوية كذلك غلب عليه الطابع الفكري.

وسوف أقتصر في هذا الكتاب على تقديم نموذجين من الأعلام والمربين في مجال علم الأخلاق وهما : الغزالي وابن مسكويه.

الأخلاق عند الغزالي

(٤٥٠ - ٥٠٥هـ)

التعريف به: هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ولد في قرية «غزالة» من أعمال طوس إحدى مدن خراسان سنة ٤٥٠هـ الموافق ١٠٥٨م له العديد من الكتب والمؤلفات من أمثال: أيها الولد والمنقذ من الضلال وإحياء علوم الدين.

اهتم الغزالي بدراسة الأخلاق وتناول أهميتها في حياة الفرد والأمة وقد عقد للأخلاق جزءاً كاملاً في كتابه الأحياء يبتدئ بحثه فيه ببيان أهمية حسن الخلق والترغيب فيه بقوله: ﴿فالخلق صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين والأخلاق السيئة هي: السموم القاتلة والمهلكات الدامغة، والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين...) وهو يرى أن هذا النوع من العلم واجب تعلمه على كل ذي لب لأن القلوب لا تخلو من الأسقام والأمراض التي تحتاج لعلاج ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩، ١٠).

ويرى الغزالي أن أمهات الأخلاق أربعة:

الحكمة، الشجاعة، العفة، العدل.

فالحكمة: حالة للنفس بها تدرك الصواب والخطأ في الأفعال الاختيارية.

والعـدل : حالة للنفس بهـا تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة.

والشجاعة : تجعل قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

والعفـة : تأدبْ قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع، فالحكمة فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة العصبية، والعفة فضيلة القوة الشهوانية والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب.

ومن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الفرعية الجميلة. والناس متفاوتون في هذه الفضائل(١).

الطريق إلى تهذيب الأخلاق :

تتحقق طمأنينة النفس وعلاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، فالغالب على أصل المزاج الاعتدال فكل مولود يولد على الفطرةوإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كل ذلك بالاعتياد والتعليم.

فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوي بالنشوء والتربية والغذاء.. فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم(٢).

نلحظ من هذا تمجيد الغزالي للعقل وهو يجمع في نظريته الأخلاقية بين العقل والشرع رغم نزعته الصوفية. فقد جعل الشرع والعقل معياران للمعرفة ومصدران للتبين في المعرفة.

والعقل يطلق ويراد به عند الغزالي أحد معنيين :

أحدهما : أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب .

والثاني : يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب يعنى تلك اللطيفة(٣) .

وقد بينا في هذا الكتاب سابقاً رأى الإمام الغزالي في مدى قابلية الأخلاق للتغيير والتعديل . وأن طريق التغيير هو الرياضة والاعتياد وكثرة العمل ويعنى بالرياضة : حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب ويرى أن الناس في ذلك على أربع مراتب :

الأولى : وهو الإنسان الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح ، بل بقى كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ، فهذا سريع القبول للعلاج فلا يحتاج إلي معلم ولا مرشد ، ولا باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان .

الثانية : أن يكون قد عرف القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله انقياداً لشهواته . وأمره أصعب من الأول ، إذ عليه نزع ما رسخ في نفسه أولاً ثم غرس صفة الاعتياد للصلاح فهو قابل للرياضة .

الثالثة : أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا يسيراً .

الرابعة : أن يكون مع نشأته على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به ، يرى الفضيلة في كثرة الشر ويظن أن ذلك يرفع قدره . وهذا أصعب المراتب .

فالأول جاهل فقط، والثاني جاهل وضال والثالث: جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير(٤).

ثم يوضح الغزالي علامات حسن الخلق، فيرى أن كل إنسان يستطيع مجاهدة نفسه أدنى مجاهدة حتى يترك المعاصي. فحسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق. كما أوضحت الآيات القرآنية والسنة النبوية الشريفة.

فمتى اعتدلت النفوس، ونقيت من الغش والغل والحقد فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى فهذا منتهى حسن الخلق.

ثم يؤكد الغزالي في نظريته الأخلاقية على ضرورة رياضة الصبيان في أول نشأتهم وتأديبهم وتحسين أخلاقهم فهم أمانة لدى الوالدين. لأن كل طفل قابل لكل ما ينقش ومائل إلي كل ما يمال به إليه. فإن عود الخير سعد في الدنيا والآخرة وشاركه في الثواب أبواه. وإن عود الشر وأهمل شقي وهلك وكان الوزر مسئولية(١). ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ (التحريم : ٦).

هذا: والغزالي يدلي برأيه في بعض الفضائل من ذلك ما أوضحناه سابقاً في الكتاب من رأيه في الغضب وفي الحلم وما أوضحناه كذلك في الكتاب من آراء في بعض قضايا الأخلاق الإسلامية.

ومن ارائه الخلقية: رأيه في «الرياء» حيث يرى أنه يكون في:

البدن، والزي، والقول، والعمل، والاتباع. كما يكون في العبادة وفي غيرها والرياء في غير العبادات ينطبق مثلا على من يملك مالا حلالاً وينفقه في الخير

لكنه لم يقصد بذلك وجه الله تعالى والرياء بالعبادة كأن يصلي ويصوم ويحج لأجل الرياء المحض دون إخلاص النية لله تعالى(٦).

ولخطورة أمر الرياء وكونه من المهلكات، فقد وضع الغزالي عدة طرق لعلاجه، كما كان يضع لبعض الآفات والمهلكات طرقاً للعلاج. فيقول في علاج الرياء:

«وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله أو اطلاعه على عباداته... وبدفع العارض منه في أثناء العبادة وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين...)(٧).

هذا وقد أبرز الغزالي الحالات التي تجوز فيها الغيبة نوجزها فيما يلي:

١ - التظلم.

٢ - الاستعانة على تغيير المنكر ورد المعاصي إلي الصلاح.

٣ - تحذير المسلم من الشر.

٤ - إذا كان الإنسان مجاهراً بالفسق(٨).

ثم يحدد الغزالي مايجب أن يفعله من جاءه نمام فقال:

١ - أن لا يصدقه، لأن النمام فاسق.

٢ - أن ينهاه عن ذلك وينصح له.

٣ - أن يبغضه في الله لأن الله يبغضه.

٤ - أن لايحمله على التجسس والبحث ولا يرضاه لنفسه.

وهكذا نجد أن الغزالي يعرض الخلق الحسن ويرغب فيه ويأتي بالأدلة العديدة عليه من الكتاب والسنة. وينهي ويذم الخلق السيئ ويحذر منه بالأدلة أيضاً ويضع الحلول والعلاج لتلك الأخلاق المذمومة.

ابن مسكويه
وفلسفته الأخلاقية

هو أبو علي أحمد بن محمد مسكويه، ولد سنة ٣٢٠ تقريباً، وتوفي سنة ٤٢١، أي عاش حوالي مائة سنة. كان قد صحب كثيراً من الشخصيات الكبيرة الحاكمة. فقد صحب الوزير أبا الفضل والملك عضد الدولة البويهي وغيرهما ويعد ابن مسكويه من أبرز علماء الأخلاق في الإسلام.

ومن أشهر مصنفاته الأخلاقية : كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق الذي كان له تأثير كبير في توجيه التربية الأخلاقية في العالم الإسلامي إلى عهد قريب. ولمسكوية كتب أخرى في الأخلاق مثل: كتاب السعادة، فضلاً عن مصنفات أخرى في مختلف الفروع.

وقد ضاق ابن مسكوية بأخلاق عامة الناس في زمانه، وأعلن أن أكثرهم قد صار وبالا عظيما على منظومة الأخلاق في عصره، من أجل ذلك تصدى مسكوية لمهمة إصلاح الفساد الخلقي الذي عز عليه أن يسود عصره، واحتلت الأخلاق المكانة الأولى عنده ويعد من أكثر مفكري الإسلام عناية بوضع الأسس الفكرية للتربية الخلقية التي استهدف بها القائمين على تربية النشء. كما قدم لهم مجموعة كبيرة من الحكم والوصايا والآداب والنماذج العملية للأخلاق الفاضلة.

- مصادر آرائه في التربية الأخلاقية:

استطاع مسكوية أن يقدم نسقاً أخلاقياً متكاملاً، فقد استقى أفكاره من مصادر شتى منها:

أولاً : الحكمة الشرقية القديمة : كان مسكويه من أصل فارسي . لذا تأثر بكثير من الأساليب الفارسية في التربية . كما عنى بالحكم والأمثال والآداب الفارسية القديمة .

ثانياً : الفلسفة اليونانية :

تأثر مسكويه كثيراً بالمذاهب الأخلاقية لدى فلاسفة اليونان القدماء ومن أهمهم :

١ - **أفلاطون** : تأثر بآراء أفلاطون في الفضائل فقال أنها أربع :

(١) **الحكمة** : وهي فضيلة النفس الناطقة .

(٢) **العفة** : وهي فضيلة النفس البهيمية .

(٣) **الشجاعة** : وهي فضيلة النفس الغضبية .

(٤) **العدالة** : وهي فضيلة جامعة تحدث من اجتماع الفضائل الثلاث السابقة[٩] .

٢ - **أرسطو** : تأثر بكثير من آراء أرسطو الأخلاقية .

٣ - **الرواقية** : تعرض مسكوية لأهم آراء الرواقيين في الأخلاق .

٤ - كما تأثر مسكويه بآراء جالينوس الأخلاقية وخاصة معرفة المرء عيوب نفسه ، ونظريته في اللذة والألم . كما تأثر باراء بريسون الفيثاغورى المحدث .

٥ - الشريعة الإسلامية : فقد زعم البعض أن مسكويه كان يفصل بين الدين والفلسفة في مجال الأخلاق ، وأنه أقام فلسفته الأخلاقية حسب أصول

العقل وحده دون التأثر بالدين. ولكنه في الحقيقة أراد أن يثبت أن قوانين الأخلاق الفلسفية لا تختلف عن قوانين الأخلاق الدينية.

ومسكوية عرف «الخلق» بقوله «الخلق حال: للنفس داعية لها إلي أفعالها من غير فكر، ولا روية»(١٠).

فالخلق عنده هيئة ثابتة وليست مؤقتة. بمعنى أن الخلق لايصير خلقاً إلا بعد كونه هيئة راسخة في الإنسان ومستمرة. كما قال بذلك الغزالي من قبل.

- مصدر الخلق عند مسكويه:

عرض مسكوية لوجهات نظر العلماء المختلفة وتناولها بالنقد والتحليل وهي:

أولاً: اتجاه القائلين بالفطرة وحدها:

يرى أنصار هذا الرأي أن الخلق ثابت، يولد مع الإنسان ولا يمكن تبديله أو تغييره، إذ الصفات الخلقية كالصفات الجسمية تماماً.

ومن هؤلاء في العالم الغربي الحديث «اسبنيوزا، وكانط وشبنهور، وكذلك أصحاب نظريات الغرائز من علماء النفس المحدثين ممن يعتقدون أن الإرادة الإنسانية سجينة في نطاق حديدي من الغرائز والطبائع.

ومسكويه يرفض القول بأن الخلق كله فطري أو طبيعي لا يمكن تعديله، لأن هذا يعني إبطال قوة التمييز أو العقل عند الإنسان، إذ يصبح أشبه بالحيوان كما أن هذا المذهب يفضي إلي القول بعدم جدوى التربية والتأديب(١١). وهذا قول ظاهر البطلان إذ الواقع المشاهد يبطل هذا.

إذن مسكويه يؤيد الرأي القائل بإمكانية تغيير وتعديل الخلق.

ثانياً : اتجاه القائلين بتأثير البيئة وحدها:

يرى أصحاب هذا الرأي أن البيئة وحدها هي التي تساعد على تكوين الأخلاق ويرون أن جميع مظاهر السلوك الإنساني مكتسبة. وممن يؤيد هذا الرأي في عصرنا الحالي: أغلب علماء «الأنثروبولوجيا الاجتماعية» وعلماء النفس الاجتماعي وأنصار المدرسة السلوكية في علم النفس التي أسسها العالم الأمريكي «واطسن».

أما مسكويه فقد عاب على هذا المذهب إغفاله حقيقة التباين الفطري بين الناس. والتفاوت في الاستعدادات بين الناس.

ثالثاً : اتجاه القائلين بالفطره والبيئة معاً :

وهو رأي جمهرة علماء النفس والتربية اليوم. أنه لابد من رد الأخلاق إلي الفطرة والاكتساب. ولقد أيد القرآن الكريم هذا المنهج فنوه بهذين المصدرين مشيراً إلي الفطرة في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين : ٤) وأشار إلى الاكتساب في قوله تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس:٧ - ٨).

وقد رد مسكويه الأخلاق إلي كل من: الفطرة والاكتساب أو الطبع والعادة واستخلص مذهبه بطريقة علمية تستند إلى ملاحظة اختلاف الأطفال فيما بينهم في قبول التأديب والاستجابة للتربية الأخلاقية. أي تفاوتهم في الصفات الخلقية - ومن ناحية أخرى لا ينبغي أن نغفل أثر البيئة والاكتساب، فإن الطباع المذمومة التي قد يولد بها الإنسان ليست لها صفة الجبرية أو الإلزام، بل إنها قابلة للتعديل. ومن هنا تبرز في نظر مسكويه أهمية التربية الخلقية للأطفال، إذ أن

الطباع لو أهملت، ولم تروض بالتأديب والتقويم، نَشَأَ كل إنسان على طباعه منذ طفولته(١٢).

ومسكويه لم يكتف بترديد المبدأ السقراطي: (الفضيلة علم والرذيلة جهل) بل يضيف إلي المعرفة شرطاً اخر، وهو الإرادة فلابد من العمل بها والعمل لا يتم إلا عن إرادة واختيار(١٣).

- وبناء على ذلك فالتربية الخلقية عند مسكويه تستمد مضامينها من مصدرين:

١ - الدين.

٢ - علم تدبير المنزل.

وهو علم يدعو إلي مراعاة مجموعة من الآداب، لا تخص طبقة دون سواها بل هي عامة تشمل أطفال الفقراء والأغنياء على السواء بغير تفرقة.

من تلك الآداب: آداب تجنب الترف والرفاهية، آداب تعود الفضائل وتجنب الرذائل، واحترام الوالدين والمعلمين.

كذلك ينبه مسكويه إلي أهمية الثواب والعقاب كوسيلة للتربية الخلقية فيؤكد على ضرورة المدح وإكرام الفرد على كل خلق فاضل باللسان وببعض الحوافز. وكذلك العقاب والتوبيخ على كل خلق قبيح مع عدم التخويف الشديد والإرهاب في تربية الأحداث(١٤).

يتضح لنا من خلال عرضنا لآراء مسكويه في الأخلاق أنه يتفق غالباً في آرائه مع الإمام الغزالي في الأخلاق.

ويحدد مسكويه شروطَ تحصيل الفضيلة وهي:

١ - العلم.

٢ - الإرادة.

٣ - الثبات من تكرار العادة والتدريب حتى تصير ملكة وخلقاً.

- هذه مجمل آراء مسكويه في الأخلاق نلحظ فيها مايلي:

١ - حدد مسكويه معياره الخلقي في الالتزام بالشريعة، وبهذا المعيار يستطيع الإنسان تحصيل السعادة القصوى.

٢ - الإهتمام بالعقل ومدى التزم هذا العقل بالشرع.

٣ - حاول التوفيق بين النظر والعمل فجاءت نظريته شاملة للجوانب الأخلاقية النظرية والعملية.

٤ - قال البعض أن مسكويه قام بوضع الأصول النظرية لمبحث الأخلاق، وتميز فيه.

٥ - اهتم كثيراً بالحديث عن التأديب والتربية للأحداث أو الصبيان كما فعل بذلك الإمام الغزالي وربما يرجع هذا التشابه إلي اتفاق كلاً منهما في النقل عن ثقافة واحدة ولكن يبدو أن مسكويه قد تأثر كثيراً في نظريته الأخلاقية بالفلسفة اليونانية فجاءت نظريته معبرة عن الثقافة التي نقل عنها(١١٥).

ومع هذا فيمكن القول بأنه أثر فيمن جاء بعده ممن تحدثوا عن التأديب أو التربية عموماً عند المسلمين كالغزالي مثلاً. إلا أن الغزالي كان أقرب إلي الدين الإسلامي وروحه من مسكويه. فكانت السعادة عنده - كما أوضحنا - تتحقق

بطاعة الله والقرب منه ومادة التربية عنده من الكتاب والسنة لا من الفلاسفة.

فربما يرجع التشابه إلي كونهم قد نقلوا ونهلوا من ثقافة العصر السائدة والتي توفرت مصادرها المترجمة آنذاك والفلسفة اليونانية كانت من أقواها(١١٦).

وأخيراً فأي باحث منصف مهما أخذ على مسكويه بعض الهفوات والمآخذ إلا أنه لابد أ ن يقر بأن مسكويه هو من أوائل المؤسسين لعلم الأخلاق بجدارة وعلم وثقافة واسعة.

هوامش الفصل السادس

١ - الإحياء / ج٣ / ص ٨٠.

٢ - المرجع السابق / ص ٨٨.

٣ - المرجع السابق / ص ٦.

٤ - المرجع السابق / ص ٨٢.

٥ - الإحياء / ص ١٠٥.

٦ - الإحياء / ص ٤٢٠ - ٤٢٣.

٧ - الإحياء / ص ٤٤٠.

٨ - الإحياء / ص ٢١٩ - ٢٢٤.

٩ - الأصول الفلسفية للتربية

١٠ - الأصول الفلسفية للتربية / ص ٣٥١، تهذيب الأخلاق / ص ٣١.

١١ - تهذيب الأخلاق / س ١١.

١٢ - المرجع السابق، ص ٣١ - ٣٥.

١٣ - المرجع السابق. ص ١٧٦.

١٤ - المرجع السابق، ص ٦٠.

١٥ - مدارس التربية في الحضارة الإسلامية / د. حسان محمد حسان، د. نادية جمال الدين / دار الفكر العربي / ص ٢٩٧.

١٦ - المرجع السبق / ص ٢٧٦، ٢٧٧.

الخاتمة

خاتمـــة

وفي نهاية هذا العمل لا أملك إلا أن أتقدم بالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وأصلى وأسلم على الحبيب المبعوث رحمة للعاملين. وقدوتنا وإمامنا، وأسوتنا الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه.

فهذا الكتاب جهد متواضع قمنا فيه بتقديم صورة موجزة عن الأخلاق الإسلامية أسسها ومصادرها وغاياتها، والمقياس الخلقى فيها. معتمدين في ذلك غالبا على القرآن الكريم المحفوظ، والسنة النبوية المطهرة، فهما المصدران الأوليان للأخلاق الإسلامية، وهما دستورا الأمة - لقد استوعب القرآن والسنة بما احتويا من تعاليم وأحكام جميع جوانب الحياة مع اختلاف العصور والأزمان، وتباين الأحوال والمتغيرات. فنظما علاقة الفرد بخالقه - عز وجل - وعلاقته بأبناء جنسه، وعلاقته مع نفسه. فلم يتركا فضيلة من الفضائل إلا وجها إليها، ورغبا فيها، وجعلا عليها الثواب والأجر العظيم في الدنيا والآخرة. ولم يتركا رذيلة من الرذائل إلا ونبها على أخطارها، وأمر بالابتعاد عنها، وتجنبها وبيان مضارها وسوء عاقبتها على الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة. وبهذا الدستور غدت الحياة الإنسان منظمة وفق قانون إلهى بحكم دقيق. إن سار مطبقاً تعاليمه نجح وفاز. وإن نأى عنه خاب وخسر. ومن خلال هذا الكتاب عرفنا أن سلامة المجتمع، وقوة بنيانه، وسمّو مكانته، وعزة أبنائه مرهونة بتمسكه بفضائل الأخلاق، كما أن انهياره وشيوع الانحلال والرذيلة والفساد فيه مقرون بنبذه الأخلاق الحميدة والابتعاد عنها.

وقد أوضحنا في هذا الكتاب أن التاريخ أكد لنا أن نهضة الأمم وازدهار حضارتها وتطورها يرتبط بامتلاك أبنائها نفوسا قوية، وعزيمة ماضية وهمما قوية، وأخلاقاً حميدة، وسيرة فاضلة، وتماسكاً فيما بينها وإيماناً صادقا بفكرتها. وهذا ما وجدناه في الدين الإسلامي والمسلمين؛ فالميزة الأساسية للنظام الإسلامي تتمثل فيما يرتكز عليه من فهم للحياة وإحساس خلقي بها. ولقد امتلك المسلمون زمام الدنيا وقدموا للناس أفضل حضارة عرفها التاريخ يوم عاشوا الإسلام نظرية وتطبيقاً، قولاً وعملاً، عقيدة وأخلاقاً.

وتعد الأخلاق من الموضوعات التي تشغل حيزاً كبيراً من اهتمام الإنسان، وتستحوذ على تفكيره أو ينبغي أن تكون كذلك. فالإنسان لا يستطيع أن يستغني عن الأخلاق في أي لحظة من لحظات حياته، ولا يستطيع أن يستغني عن مثل أعلى في سلوكه؛ أو معيار للحكم على أفعاله، وأفعال الناس بالخير أو بالشر، ولا يمكن أن يتصور المرء إنساناً يعيش بلا ضمير يحاسبه إذا أخطأ، ويلومه إذا استمر في الخطأ وتمادى في الشر. ومهما كانت الدرجة التى قد يصل إليها الإنسان من التردى الأخلاقي في وقت من الأوقات فإنه سيظل على الرغم من ذلك كائناً أخلاقياً، يخرج في حياته الواقع المعاش بالمثل العليا.

وهذا الكتاب يلقى نظرة مركزه علي الفكر الأخلاقي في عصوره المختلفة، وعلى أهم النظريات الأخلاقية التي انبثقت عن هذا الفكر معبرة عن محاولات الفكر البشرى المستمرة، وجهوده المتواصلة في سبيل معايير

أخلاقية ينبغي أن تحكم الإنسان، وتنظم علاقاته بوصفه كائناً أخلاقياً مكلفاً ومسئولاً ومجزياً إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ويعد الكتاب مدخلاً أولياً لدراسة موضوعات علم الأخلاق، ولهذا فإنه لم يكن من هدفنا الاستقصاء والتفصيل، وإنما فقط إلقاءبعض الضوء على أهم مسائل هذا العلم.

ومن هنا نجد أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون قيم، فهو الكائن الوحيد في هذا الوجود الذى لا يكتفى بإشباع حاجاته ورغباته الأولية من طعام وشراب. بل يتطلع دائما إلى قيم توجه حياته وأخلاق تضبط سلوكه، فهو كائن أخلاقي بطبعه. يمزج في حياته الواقع المعاش بالمثل العليا، ويجمع في سلوكه بين مرتبة الحاجات الغريزية، ومرتبة الضمير الخلقى والسمو الروحي.

ومن هنا كانت أهمية الدراسات الأخلاقية، وأنها ليست مجرد دراسات أكاديمية منعزلة عن حياة الناس. وإنما هى دراسات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بها .تمتزج بسلوكهم امتزاجا عضوياً منذ فجر التاريخ، وستظل الأخلاق والدراسات المرتبطة بها محل اهتمام البشر ومحور حياتهم. ونأمل أن يسهم هذا الكتاب في إلقاء الضوء على المنظومة الأخلاقية في الإسلام، فضلاً عن إثارة الاهتمام وفتح الشهية لمزيد من الدراسات والكتابات في مجال علم الأخلاق.

ونستطيع أن نستخلص بعض النتائج لما سردناه ووصلنا إليه من خلال دراستنا عن علم الأخلاق الإسلامية : -

١ - أن الأخلاق الإسلامية اختلفت عن الأخلاق الأخرى غير الإسلامية من حيث مضمونها، ومصدرها، وغاياتها، وشموليتها ووسطيتها العادلة.

٢- إن هدف الإنسان في هذه الحياة هو عبادة الله وخلافته في الأرض وتعمير الكون ومحاربة الفساد، وكل هذا لا يتم إلا عن طريق التمسك بالأخلاق الإسلامية.

٣ - ينبغى تربية الفرد على عقيدة التوحيد وغرس الوازع الديني فيه والضمير الأخلاقي الذى يعد قبسا من نور يضيء للإنسان طريقه ويهديه إن أظلم عليه السبيل، والتبست عليه المسالك، ويصبح بذلك قادراً علي التوافق مع نفسه سراً وعلانية؛ فيعمل وفق ما يمليه عليه ضميره الإسلامي الحي.

٤ - ينبغى أن يري الإنسان على تحمل المسئولية وتبعاتها وأن نغرس فيه القدرة على المكابدة، وأن نعلمه أن المفاضلة بين الناس قائمة على أساس التفاوت بينهم في مقدرتهم على تحمل المسئولية والقيام بتبعاتها. فهي نوع من التكليف الذى يميز الانسان بإنسايته دون سائر المخلوقات. وأنه مسئول أيضاً عن عمله، فهو حر الإرادة ويحاسب على ما اقترف إن خيراً فخير وإن شراً فشر وله الجزاء المقابل.

٥ - إن الإنسان يحمل في طياته جانبى الخير والشر ولا يعلو إلى درجة الملاك أو ينحط إلى درك الحيوان أو الشيطان. بل هو إنسان يخطىء فيتسجيب للتوجيه والتعديل، وهو كذلك يصيب فيتطلع إلى الارتقاء فتنمو مواهبه وقدراته وفق أساليب التوجيه والتربية الصحيحة.

٦ - ينبغي العمل على تخليص القيم الإسلامية مما علق بها من شوائب تعوق حركة التقدم والتنمية والحضارة، كالتواكل والسلبية والانتهازية، والتقليد الأعمى، وغير ذلك من القيم والمفاهيم الخاطئة التي شاعت باسم الإسلام، وهو منها براء.

٧ - ينبغي على المسلم أن يتمثل أخلاق الإسلام في سلوكه ولا يقف بها عند حد التنظير. فالتوافق بين الفعل والقول يؤتي ثماره ويعكس الصورة المثلى للإسلام الذي انتشر في ربوع الأرض بأخلاق المسلمين وسلوكياتهم قبل علمهم، ولنطالع التاريخ لنتعرف كيف دخل الإسلام أفريقيا وأوربا وشرق آسيا؛ فالمُثُل الأخلاقية ليست إلا منارات يسترشد بها الفرد، وتسترشد بها الجماعة، لتحقيق الغايات الكبرى للنهضة الحضارية وإحداث التنمية المرغوبة.

فما أحوجنا اليوم إلى التزام هذا النموذج الأخلاقي الذي وجه إليه الإسلام وعاشه المسلمون واقعا حيا فأثمر أفضل حضارة، وأنتج أسمى تقدم ورقي. ما أحوجنا إلى أن نقدم هذه الصورة للعالم الغربي الذي يصم الإسلام والمسلمين صباح مساء بالإرهاب والهمجية والعشوائية مغايرا بذلك الحقيقة. فما نعم غير المسلمين بأخلاق مثلما نعموا بها في ظل حكم الإسلام، وما أحوج المسلمين لاسيما المغرورين المفتونين المبهورين بالغرب، وكذا المتعصبين والسذج إلى استقراء التعاليم الأخلاقية في الإسلام والتاريخ الأخلاقي للمسلمين لاسيما الفاتحين والتجار والعلماء.

وهذا يلقى بالمسئولية على الدعاة والمربين إلى زرع الثقة بين المسلمين وتوضيح الصورة لغير المسلمين.

٨ - ينبغي تصحيح النظرة الخاطئة عن الأخلاق الإسلامية - لدى ضعاف الإيمان المغرضين - على أنها قيود مفروضة، وأنها سبب من أسباب فقدان المسلمين مقدرتهم على التقدم وأنها منشأ وجود روح التبعية فيهم، وأن السبيل إلى التقدم هو التحرر من هذه الأخلاق. وتوابعها مثل النظرة إلى الحجاب على أنه قيد، وللزواج على أنه حبس للحرية، ولاجتناب الربا على أنه معوق للتنمية، وللصبر على أنه عجز. وللعفو على أنه جبن واستسلام، وكظم الغيظ على أنه ضعف.

ولحسن تبعل المرأة لزوجها على أنه انقياد وفقدان لشخصيتها، والنظرة إلى التبذل وعدم الاحتشام على أنه حرية وضرورة عصرية إلى غير ذلك من أخلاقيات تحفظ المسلم في مظهره ومخبره في نفسه وبيته ومجتمعه.

وهذا الكتاب ما هو إلا تذكير بالأخلاق الفاضلة الحميدة التي يجب على المسلم أن يتمسك بها حتي يكون مطبقاً لدين الله ملتزماً شرعه ليفوز - إن شاء الله - بجنته ونعيمه.

وأخيراً أرجو من الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت لما أردت.

مراجع الكتاب

مراجع الكتاب

١ - القرآن الكريم.

٢ - السنن ابن ماجه - بيروت، دار إحياء التراث العربي / ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٣ - السنن أبو داود، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٤ - مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى / تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني / ط٣ / بيروت المكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

٥ - السنن النسائى بشرح جلال الدين السيوطى / بيروت / دار إحياء التراث العربي (بدون).

٦ - السنن الترمذي - لأبى عيسى الترمذي / القاهرة - دار الفكر / ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٧ - مسند الأمام أحمد بن حنبل / للإمام أحمد بن حنبل. بيروت / المكتب الاسلامي (بدون).

٨ - صحيح البخاري / للإمام البخارى / أبى عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى / تركيا - استانبول / المكتبة الإسلامية (بدون).

٩ - ملوطأ مالك / للإمام مالك / بيروت / دار النفائس ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

١٠ - السنن الكبرى / للامام البيهقي - الهند، حيدر أباد / مطبعة مجلي دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٤هـ.

١١ - صحيح الإمام مسلم / عيسى الحلبى: لأبى الحسين مسلم ابن الحجاج القشيري النيابورى.

١٢ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / علاء الدين على المتقى الهندى / بيروت / مؤسسة الرسالة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٣ - متصر صحيح البخارى / محمد ناصر الألباني / بيروت / دمشق المكتب الإسلامي ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٤ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - محمد فؤاد عبدالباقى عيسى الحلبى.

١٥ - السنن للدارمى / أبى محمد عبدالله بن عبدالرحمن ط١ / دمشق دار القلم ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

١٦ - صحيح ابن حيان لابن حيان ط١ / لبنان / دار الكتب العلمية / ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٧ - أبناؤنا بين وسائل الرعلام وأخلاق الإسلام / ت منى حداد يكن / ط١ / مؤسسة الرسالة / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٨ - اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية / د. ماجد عرسان الكيلاني / ١٤١٢هـ - ١٩٩١م / سلسلة بحوث التعليم الإسلامي.

١٩ - إحياء علوم الدين / أبو حامد محمد بن محمد الغزالى / ط١ / تحقيق الشحات الصحان وعبدالله المنشاوى / مكتبة الإيمان / جـ٣ / ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٢٠ - أسس التربية / د. إبراهيم ناصر / دار عمار / ١٩٩٩م.

٢١ - أصول التربية الإسلامية وأساليبها / د. عبدالرحمن النحلاوى / ط١ / دار الفكر / ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٢ - أصول الدعوة / د. عبدالكريم زيدان / ط٥ / مكتبة القدس / دار الوفاء / ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢٣ - أصول الفكر التربوي في الإسلامي / د. عباس محجوب / ط١ / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٢٤ - أضواء على التربية في الإسلام / علي القاضي / ط١ / دار الأنصار بالقاهرة / ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م.

٢٥ - الأخلاق في القصور السلامي / د. آمنه محمد نصير / مكتب تامر للطباعة / ١٩٨٤م - ١٩٨٥م.

٢٦ - الأخلاق / أحمد أمين / بيروت / ١٩٦٩م.

٢٧ - الإسلام / ت سعيد حتّوى / مراجعة وهبي سليمان الالغاوجي / ط١ / ج١ / ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٢٨ - الإنسان بين المادية والإسلام / محمد قطب / ط٦ / دار الشروق / ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٢٩ - الإنسان في القرآن / ت عباس محمود العقاد / ط٢ / دار الكتاب العربي / بيروت - لبنان / ١٩٦٩م.

٣٠ - التربية في الإسلام (النظرية والتطبيق) د. عدنان علي رضا النحوى / ط١ / دار النحوى / ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣١ - التربية الإسلامية وتنمية المجتمع الإسلامي / د. علي خليل مصطفى أبو العينين / ط١ / مكتبة إبراهيم حلبي / ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٢ - التربية الإسلامية (مفهومها - أسسها - أهدافها) د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل / ط٢ / ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٣٣ - التربية الإسلامية أصولها تطورها في البلاد العربية / د. محمد منير مرسى / عالم الكتب / ١٩٩٨م.

٣٤ - الترغيب والترهيب / المنذري / دار الفكر / ودار إحياء التراث العربي ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٣٥ - الطبيعة الرنسانية في القرآن الكريم / د. محمد وجيه الصاوى / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣٦ - العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع / د. محمد بيصار / دار الكتاب اللبناني / بيروت.

٣٧ - المستطرف في كل من مستظرف / ت شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي / شرح د. مفيد محمد قميحه / ط١ / دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان / ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣٨ - المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية / ت عبدالله بن محمد الشبانة / دار طيبة / ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٣٩ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة / مراجعة د. مانع بن حماد الجهني / ط٣ / ج٢ / دار الندوة العالمية للطباعة / ١٤١٨هـ.

٤٠ - بصائرة ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز / الفيروز أبادى / المكتبة العلمية / بيروت.

٤١ - تأملات في فلسفة الأخلاق / منصور علي رجب / الأنجلو المصرية.

٤٢ - تفسير المنار السيد رشيد رضا / ط١ / ١٣٤٦هـ.

٤٣ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق / لأبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (مسكويه) المتوفى سنة ٤٢١هـ / ط٢ / منشورات دار الحياة بيروت - لبنان ومكتبة صبيح / ١٩٥٩م.

٤٤ - توجيهات تربوية من القرآن والسنة في تربية الطفل / د. حليمة علي أبو رزق / ط١ / الدار السعودية / ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٤٥ - جاهلية القرن العشرين / محمد قطب / دار الشروق / ١٩٨١م - ١٤٠١هـ.

٤٦ - حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة/ محمد الغزالي/ ط١/ دار الدعوة/ ١٤١٣هـ - ١٩٦٣م.

٤٧ - خصائص المجتمع الإسلامي/ محمد عبدالله الخطيب/ دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٨ - خلق المسلم/ محمد الغزالي/ دار الكتب الإسلامية/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٤٩ - دراسات في النفس الإنسانية/ محمد فطب/ ١٩٧٢م.

٥٠ - دروس في تاريخ الفلسفة/ د. إبراهيم مدكور/ المطبعة الأميرية.

٥١ - دستور الأخلاق في القرآن/ د. محمد عبدالله دراز/ تعليق وتحقيق عبدالصبور شاهين/ راجعه د. السيد محمد بدوى/ ط١٠/ مؤسسة الرسالة/ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٥٢ - عناصر القوة في الإسلام/ ت السيد سابت/ ط٢/ دار الكتاب العربي بيروت - لبنان/ ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

٥٣ - فلسفة التربية الإسلامية/ د. عمر محمد القومي الشيباني/ ط١/ المنشأة العامة للنشر والتوزيع/ ١٩٧٨م.

٥٤ - في الفلسفة والزخلاق/ د. إبراهيم أحمد محفوظ/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٥٥ - في ظلال القرآن/ سيد قطب/ ط٥/ دار الشروق/ ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٥٦ - قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام/ أنور الجندي/ ط١/ مؤسسة الرسالة/ ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥٧ - كلمات في الأخلاق الإسلامية/ د. كمال محمد عيسى، دار المجتمع للنشر والتوزيع.

٥٨ - مدخل إلى تاريخ التربية الإسلامية / د. مصطفى محمد متولى، دار الخريجي للنر ١٤١٧هـ.

٥٩ - معالم الثقافة الإسلامية / د. عبدالكريم عثمان / دار النصر عام ١٣٩٨هـ.

٦٠ - مقدمة في علم الأخلاق / د. محمود حمدى زقزوق / ط٤ / دار الفكر العربي / ١٩٩٣م.

٦١ - مكارم الأخلاق / للشيخ تقى الدين أحمد بن تيمية / تحقيق عبدالحميد ران - محمد عمر الحاجي / ط٢ / دار الخير / بيروت / ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٢ - منهاج المسلم / أبو بكر جابر الجزائري / ط٨ / دار الفكر / بيروت / ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٦٣ - منهج التربية الإسلامية / محمد قطب / ط٣ / دار الشروق / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦٤ - منهج التربية البنوية للطفل / تنقديم د. محمد فوزى فيضى الله والشيخ عبدالرحمن حسن خبنكة والشيخ أحمد القلاش / و د. محمود الطحان. بقلم محمد نور سويد / ط٤ / دار الوفاء / ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

مطابع الحميضي
تلفون ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس ٤٥٩٢٢١٧